
أحلام
نارية
رواية
محمد إبراهيم محروس

٤٤ ٦٣٤

(١)

لم أكن أدرى أين الطريق ، ولم تكن ملامح الغربة داخلي قد وصلت بي إلى مرحلة التشبع.

كنت شغوفًا جدًا بتلك البلد الأوروبي التي نزلتُ ضيفًا عليها منذ خمس سنوات.. قدمتُ إليها.. كنتُ فاتحًا ذراعيَّ لاحتضان كل جديد في هذه الأرض.. وكانت الحياة في تلك البلد باردة ببرودة جوها القارس.. لكني تعلمت كيف أمنح الدفء للمكان الذي أتواجد به.. يقولون إنني مكوكٌ متحرك.. من يقترب مني يحترق.. مجنون بذاتي.. ليكن..

منذ ثلاث سنوات كان يجب أن تظهر هي في حياتي بالطبع.. كان يجب..وكأي مغترب يبحث عن ونيس كان لابد من وجودها.. جرمين.. فتاة متوسطة الجمال، طويلة القامة لحدٍ مزعج، ذات جلد شاحب ملتصق بعظامها.. عينان واسعتان جاحظتان دومًا.. جبهة عريضة وشعر مقصوص بعناية وبطريقة غريبة..فتاة غربية كان لابد أن تتواجد بحياتي هنا.. هذا ليس شيئًا يدعو للتساؤل !

أي شخص في مكاني يبحث دومًا عن فتاة أجنبية.. وكانت جرمين.. جرمين ولدتْ من أب تركي وأم يونانية..

لا أعرف كيف اجتمع هذان الطرفان.. ولكن هذا ما حدث ونتج عن تجمعهما جرمين..

لا أعرف متى وكيف بدأت أميل لجرمين..كانت حياتي منذ مجيئي تمضي على وتيرة واحدة.. الاستيقاظ مبكرًا جدًا لدرجة رهيبة، والنوم مبكرًا جدًا لدرجة مدهشة.. كانت لحظات استيقاظي تشبه لحظات المحكوم عليه بالإعدام عندما يسمع خطوات في الطريق إلى غرفته.. أقوم مفزوعًا على رنات المنبه.. أدعك عينيّ.. أتناول ما تبقى في كوب الماء الذي بجواري، وأحاول أن أبلل شفتي منه، ولكنني أكتشف أنني جرعته دفعة واحدة من قبل..هذا الكوب الذي أضعه دائما بجواري قبل النوم..أعرف تلك العادة الغريبة فيّ .. الاستيقاظ فجأة وجرع كوب الماء كاملاً، ثم السقوط في النوم مرة أخرى بغتة.. الويل لي إذا نسيت أن أملأ كوب الماء.. وقتها لا أجد مفرًا من القيام من السرير والذهاب إلى المطبخ؛ كي أتجرع دفعات من المياه عبر الصنبور مباشرة.. أفتح المياه على آخرها وأشعر باصطدام المياه بفمي ووجهي وربما أغرقتُ ثيابي.. عادة أخرى مميتة في هذا البرد الرهيب.. أشعر بأن حلقي يحترق، ولكني فلاح تعود الشرب فيما مضى من "طلمبة" المياه العمومية لفترات طويلة؛ لذا كان اصطدام الماء بفمي

ووجهي له شعور خاص رهيب.. ولكن بعدها يذهب النوم بلا عودة.. وأنتظر لحظات القلق الرهيب تعصف بكياني، كي تأتى رنات المنبه مزعجة فأهب لألحق أول مترو. مكان عملي يبعد عن السكن ساعتين؛ لذا كان استيقاظي لابد أن يكون قبل ميعاد العمل بثلاث ساعات كاملة؛ حتى أكون منضبطًا في الميعاد.. هنا لا يرحمون.

صباح آخر سيأتي، ستصل جرمين اليوم.. كان استيقاظي قد تم بصورة رهيبة لقد نسيت كوب الماء، كنتُ مشغولاً بالتفكير في جرمين.. اللعنة !

أكاد أجن وأنا أحاول أن أترجى النوم مرة أخرى أن يأتي.. ولكن كالعادة أعرف أن هذا مستحيل الآن.. ليكن.. أمامي ساعتان لأفتح جهاز الكمبيوتر وأدخل على بريدي الإلكتروني.. ربما وصلتني رسالة من سلوى.. سلوى تلك الفتاة اللبنانية التي شغفتُ بها حبًا، والتي قابلتها منذ خمس سنوات هنا.. سنتان تفرق بينها وبين معرفتي بجرمين.. كانت سلوى قد أتت في منحة دراسية، لكنها لم تتحمل الغربة، وقررت العودة للبنان حيث تشعر بالدفء، حتى وهى بين أحضاني كانت تقول:

- لا أشعر بالدفء هنا، الأحاسيس هنا ممطوطة وزائفة. سلوى تختلف تمامًا عن جرمين.. تميل إلى القصر

نوعًا ما، عيناها ضيقتان، ولكنك لا تشبع منهمــا، تشــعر كأنك تغوص داخل بحر رهيب، شعرها يصــل لمنتصــف ظهرها، وردية الملامح والجسد.. ولكن لكل منهما لحظات خاصة ومذاقات مختلفة وخاصة في حياتي.. لــم تنقطــع الرسائل بيني وبين ســلوى، بالبريــد العــادي أو البريــد الإلكتروني منذ عادت إلى لبنان..

أربع سنوات مضت بكل همومها.. ثم ظهرت جــرمين بعد سنة من غياب سلوى.. كنت أحتاج لها وقتذاك..عادتْ سلوى قبل أن أتعرف على جرمين بســنة.. مللــت لعبــة السنوات.. ها هو الماسينجر يفتح أمامي.. تسجيل دخــول، للحظات.. هناك رأفت وعلاء.. منذ مدة أريد أن..لا يهــم الآن.. هذان الشخصان المقيمان في فرنسيا.. لا أريــد أن أكلم أحدًا منهما.. سأضع علامة "مشغول"..

كلاّ..ربّما أتت سلوى ورأت أنني مشغول فلن تكلمنــي وقتها، تعتز بخصوصياتي دومًا.. ها هو عــلاء يعطينــي إشارة تنبيه.. اللعنة.. هل أتجاهله ؟.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- كيف أنت يا فؤاد ؟.

- أهلاً علاء.. الحمد لله.

- ما بك ؟

- لا شيء.

- ولكني أشعر أن لهجتك يشوبها شــيءٌ مــن عــدم الارتياح.

- لا... لا شيء .

- كوب الماء كالعادة، لا أراك في هذا الوقــت إلا إذا نسيت كوب الماء!!.

- ها ها ها.

- المشكلة أنك تشعر بالفراغ بعد سفر جرمين.

نسيت أن أقول لك إن علاء ليس مجرد شخص تعرفت عليه على النت، بل هو رجل رحال تعرفت عليه هنا، قبل أن يغادر تلك البلد؛ ليبحث عن نفسه فــي مكــان آخــر.. يقضي كثيرًا من الساعات على النت.. ويقضي الكثير من الوقت في الترحال، لا تعجبــه أي أرض تســتقر عليهــا قدماه.. يبحث دومًا عن أرض أخرى في خيالــه هــو... يستخدم جهاز كمبيــوتر خــاص متصــل دومًــا بــالقمر الصناعي، ولذا فهو أربعة وعشرون ســاعة "أون لايــن". إشارة تنبيه أخرى.

– إلى أين ذهبت يا فؤاد ؟!اللعنة!

– أنا هنا ولكني لم أستيقظ بعد الاستيقاظ الكامل.

– ألم تتصل بك جرمين بعد ؟

لماذا يحشر هذا المتسلط نفسه دائمًا في خصوصياتي؟! .. نعم إنه هو من عرفني بها، لكن هذا لا يعطيه الحق للتدخل دومًا في علاقتي بها، سوف أقفل الجهاز..

ولكنه قال بغتة:

– لقد اتصلت بى اليوم، وهى ترغب أن تنهى العلاقة التي بينكما.

أجبته في استفزاز:

– ولماذا تبلغني أنتَ بهذا؟!..أليس لها لسان كي تخبرني هي؟ ولماذا لم تقل هي أي شيءٍ مما تقول أنت؟!.

– همم

أسلوبه المستفز كالعادة، وجدت نفسي أقول:

– لا تهمهم يا رجل وقل... الوقت يمضي.

– لن تعود اليوم.

– إن شاء الله ما عادت.

– ألا تهتم ؟.غريب!

- أرجوك يا علاء اتركني وحدي الآن.

- لكن رأفت يرغب في محادثتك.

- كلاّ.

- أعرف أن علاقتكما شائكة، لكنه يرغب في الاعتذار لك.

- كلا.

- ألا تنسى ؟!

- أنت تعرفني أنا لا أنسى قط.

- ولكنه آسف فعلا.

- ليكن لا وقت الآن لهذه الترهات... مع السلامة.

- انتظر يا فؤاد.

- مع السلامة.

- ثواني.

- مع السلامة.

- يا رجل!

- مع السلامة.

أغلقتُ الجهاز، وأنا أزداد غضبًا على غضب.

لماذا تقول له جرمين ما قالتْ، إن حدث هذا ؟!

منذ يومين اتصلتْ بي ولم تقلْ شيئًا عن قطع العلاقة أو ما شابه، بل وصفتْ لي رحلتها، وكيف استمتعت بها.. هل علاء يريد أن يدخلني في دوامة أنا في غنى عنها الآن، وفي صباح كهذا؟!..

اللعنة!

تختفي سلوى منذ فترة.. ثلاث شهور ولم أسمع عنها شيئًا.. ورأفت مصمم أن يكون له ضلع في الموضوع.. قال إنه يعرف سلوى قبلي بسنوات، وإنه كان سببًا مباشرًا في معرفتي بها وتوطئة أقدام الصداقة والحب بيننا بسببه.

لماذا يتدخل الجميع في حياتي بهذه الصورة؟؟ ..

علاء سبب معرفتي بجرمين.

ورأفت سبب معرفتي بسلوى.

وأنا ألستُ سببًا لأي شيء.. هل حياتي مرتبطة فقط بهم..عجبًا!

يا لها من طريقة لارتباط أشخاص مثلنا!

رأفت فلسطيني، سلوى لبنانية، جرمين خليط عجيب تركي يوناني، علاء سوري من أم مصرية..

خليط عجيب ارتبطتْ حياتي به، لسنوات هنا، ولسنوات بعد سفرهم..

ما زالتْ حياتي كعقدة يستحيل فكهـا دون الاصـطدام بهؤلاء.

شيءٌ عجيب يحدث لي.. رنين المنبه أتى مُلِّحًا مزعجًا.

كنت لاأزال أحدق في شاشة الكمبيوتر أمامي..

قمتُ مسرعًا، دخلتُ الحمام، أخذت دشًا سريعا لأفيق.. مشيت مترنحًا إلى الصالة ومنها لغرفة نـومي.. أرتـدي ملابسي بهدوء ورغم قلقي.

دائمًا أحاول أن أرتدي ملابسي بهـدوء.. أتطلـع إلـى شكلي في المرآة..

يبدو الشحوب على وجهي.. ولكنني ما زلـتُ أحـتفظ بوسامتي المعهودة.. محطة المترو تبعد عن مسكني عشـر دقائق..آخذها ماشيًا، وأنا أُحكِم ياقة معطفي علـى رقبتـي بشدة..

كان هناك فتيات عائدات إلى بيوتهن بعد قضاء جزءٍ من الليل الذي لم ينقض كله بعد في بيوت أصدقائهن، بعضهن ابتسمن لي، هناك نوع من العلاقة الغير مفهومة تربطنـي بهن، تعودتُ رؤيتهن في هذا الصباح الباكر وقـد ذهـب

الخمر بعقولهن.. رأتني جاكلين.. ابتسمتُ محييًا وهي تميل على أذن جارتها، ابتسمتْ في خجلٍ والضحكات تتعـــالى.. بالطبع تهمس لجارتها بفشلي، تذكرت كيف تعرفت بها أول مرة في محطة المترو كان يومًا كهذا، وفشلتُ، وفشلت في اللحاق بالمترو، فكنتُ أصرخ في المحطة كالمجنون؛ لكنها أقبلتْ ناحيتي، وراحتْ تحدثني في همـس، حتـى توقـف السباب من السيل من فمي.. بالتأكيد تحكي لصديقتها عــن فشلي يومها في اللحاق بالمترو..

تجنبتُ النظرات المختلسة الفضولية من صديقتها وأنــا أبتعد، وأبتعد.

هناك آلةٌ تزيل الثلوج من أمام فيلا منير الطــاغوتي.. اسم غريب!

منير هذا يقولون إنه يتاجر في كل شـــيء بــدءًا مـــن السموم البيضاء إلى اللحوم البيضاء والحمراء، شبكة كاملة من المخدرات والدعارة وغسيل الأمـــوال تـــرتبط باســـم الطاغوتي.. منظر فيلته يلفت الأنظار دومًا، هناك حارسان لا يفارقان بوابتها قط. إنه عالم غريب لم أدخله، ولم أظـــن أنني سأدخله يوما ما.. حضرت في مرة حفلة مـــع رأفــت هنا.. يا لها من حفلة..اللعنة!

يذكرني رأفت بأشياء كثيرة أرغب في نسينها.

علاء أيضًا يعرف عن الطاغوتي أشياء وأشياء، كثيرًا ما حدثني عنه.

قال لي مرة: الطاغوتي رمز هنا.. رمز لكل ناجح..

ويا له من رمز..

للطاغوتي حكايته المعروفة، تاجر سلاح قذر تحول إلى تاجر مخدرات عندما ازدهرت أحوالها، ثم تحول إلى تجارة أخرى أشد بشاعة.. تجارة الرقيق الأبيض.. يجلب من الفلبين وماليزيا أطفالاً ونساءً يبيعهم هنا..

صورة بالكربون لكل أشرار الأفلام، وكأنه أخذ حياته من فيلم سينمائي..

هنا وطن من لا وطن له..

بل هنا لا وطن لمن لا وطن له.

الطاغوتي وفيلته.. رمز بلا وطن، ووطن بلا رمز.

كانت الآلة تزيل الجليد وخطواتي تحفر طريقًا لها في اتجاه محطة المترو..

وكلمات كثيرة تتردد في داخلي.. علاء، رأفت، سلوى، جرمين، الطاغوتي.. المترو..

وطن بلا وطن.. وأرض بلا أبناء..

وأحلام نارية في الطريق..

وأخذت أفكاري تتباعد وتتباعد، وبلا مرفأ.

(٢)

دخلتُ إلى محطة المترو وجسدي يرتجف من البرد.. أشعر أن أطرافي وقدمي مجمدة لدرجة رهيبة، وأن مجرد لمس أي شخص ليدي أو جلدي سيجرحني.. شعور غريب!.. مجرد اللمس إحساس بحد السكين على الجسد! ..

عشر دقائق ويصل المترو.. تطلعت لساعة هاتفي المحمول.. عشر دقائق أخرى في هذا الصقيع.. عذاب آخر يضاف إلى عذاباتي المتعددة..

كنتُ أحكم باقة المعطف بشدة، وأتصور إلى متى ستظل حياتي هنا هكذا ؟!

كنتُ كل فترة أبادل الابتسام لفرنشيسكا، فتاة شباك التذاكر.. نوع آخر من الألفة يربطني بها..أسألها كثيرًا عن والدها، الذي أصابه الشلل فأقعده، وعن أمها باترتيسيا التي تبذل الكثير من الجهد؛ لتعتني بهذه الأسرة البسيطة، أب وأم، وفرنشيسكا، وأخ وحيدٌ معاق ذهنيًا..أسرةٌ حُكِم عليها بالفقر.. لم أتصور يومًا أن هناك فقرًا في العالم سوى في بلدتي؛ التي هربت منها إلى هنا.. ولكن من الجليّ أن العالم أصبح حالة واحدة..

ابتسامة فرنشيسكا دائمة خجلة مرتبكة..لقد بلغت العشرين من عمرها منذ أسبوع، وأصررتُ يومها أن تدعوني إلى بيتهم للتعرف بالأسرة، التي كثيرًا ما حكتْ لي عنها، وأنا أنتظر المترو في مثل هذه الأوقات..أحاديثها دائمًا تجذبني، تتكلم بعفوية وصدق.. لا مجال للكذب أو التلاعب بالألفاظ عندها.. طفلة في العشرين هي..تعرف أن جرمين مسافرة منذ فترة، وتعلم أنني وحيد هذه الأيام؛ لذا تزيد من حجم ابتسامتها لي؛ حتى تعطيني شعورًا جديدًا بالارتياح.. كثيرًا ما قلت لها إنها تملك أروع ابتسامة في الدنيا، وإن دافنشي لو شاهد ثغرها الضاحك ما رسم الموناليزا قط..

كانتْ تضحك وقتها بشدة..أتذكر عيد ميلادها العشرين.. يومها قابلتُ أباها..إنه رجل رهيب لا تستطيع أن تتوقف عن الضحك لحظة واحدة وأنتَ تتكلم معه.. شخصٌ فريدٌ من نوعه هنا، برغم مرضه يسخر من كل شيءٍ وأي شيء.. يسخر من معاونة البطالة، يسخر من نظرة المجتمع الغربي لأمثالنا من العرب، نظرة من وجهة نظره ضعيفة ومستهجنة.. نظرة حقيرة من مجتمع أحقر..

زار الأهرامات في الماضي هو وزوجته، وزار سوريا والجزائر والمغرب.. كان قبل مرضه يستطيع أن يوفر مالاً

لتلك الزيارات.. يعشق الشـــرق.. يقــول: هنـــاك ولـــدت الحضارة وليس هنا..

مستشرق جاد هو، كان أستاذًا جامعيًا، وكان لـــه مـــن المحبين الكثير..إلى أن لُفقَت له هذه القضـــية.. "تحـــرشٌ جنسيٌ بإحدى الفتيات"..."أنجلي ماريا"، فتـــاة كـــان يحبهـــا كابنته، وكثيرًا ما عطف عليها، وأغدق عليها مـــن علمـــه وماله بعد قصة حبها الفاشلة وتخلصها من الجنين، وهروب روبرتو منها..

كانتْ آراؤه في الجامعة السبب في هذا.. ترصدوا له.. واستطاع روبرتو أن يقنع أنجلي بالخطة الرهيبة.. وبالفعل اســـتطاعوا أن يوقعـــوه فـــي الأمـــر.. تحـــرش جنســـيّ وإجهاض!!.. كان من الممكن أن يسجن، ولكن أتى الحكم مخففًا، وطرد من الجامعة؛ ليصبح بعد كل هذا التاريخ في الشارع..

كان حكمًا مجحفًا لأستاذ له تاريخه الجامعي... وبسبب إسرافه الرهيب؛ وجدت الأسرة نفسها في مهـــب الـــريح.. كانتْ ريحًا عاصفةً مدمرة، كادتْ أن تقتلع الأســـرة مـــن جذورها.. ولكن الأم المتفهمة حافظتْ على هذا البناء، الذي قضتْ عمرها في تأسيسه والحفاظ عليه من الهدم..

فرنشيسكا مازالتْ تتطلع لي في هـــدوء.. الابتســـامة لا تفارق ثغرها.. ثغر جميل، وأنف دقيق، وملامح متناســـقة متناغمة، وشعر أصفر كأوراق الخريف هنا..

انتفضتُ في مكاني.. لم أعلم حقًا هل انتفاضة جســـدي بسبب البرد أم بسبب المترو الذي اقتحم المحطة فجأة؟!

استقللتُ المترو بسرعة.. وأنا أشير لفرنشيسكا بالتحية.. كم كان أبوها بطلاً!

كان رواد المترو قليلين.. معظمهم أغـراب مثلـــي .. ملامحهم منقبضة.. وأيديهم منقبضة على لاشيء، ولكنهـــا تبدو كأنما يقبضون على جمرات من النار.. طفلة صغيرة تحملها أمها في طريقها إلى العمـــل.. ســـتنزل بهـــا بعـــد محطتين تترك الطفلة لدى إحدى صديقاتها..والتي تنتظرها دومًا بعد محطتين تلتقط منها الطفلة بسرعة وهي تشير لها بالتحية، وتعود بلهفة للمترو قبل أن يغلق أبوابه، تدفع جزءًا من راتبها الشهري لصديقتها نظير رعاية طفلتها، اعتـــدتُ على هذا المشهد منذ فترة، تعرفتُ عليها هنا أيضًا.. تونسية تجيد الفرنسية وتعمل في الترجمة.. تبادلنا الحديث مـــرارًا في المترو.. كلمات مقتضـــبة، ولكنهـــا تســـاوي ملايـــين الأحاديث هنا..اسمها؟ اللعنة! لا أتـــذكر الآن..واضـــح أن استيقاظي المزعج أضعف كل حواسي الذهنية..ابتسمت لها

ولصديقتها وأنا أضع قدمي على باب المترو لأمنعه من الانغلاق؛ حتى تدلف هي إليه مرة أخرى وهي تبتسم لي..

عجوزٌ آخر أنهكه المرض، يعالج منذ فترة في مستشفى حكومي هنا.. وينتظر من يتبرع له بكِليَة.. يخوض هذا المشوار ثلاث مرات أسبوعيًا؛ لعمل الغسيل الكلوي.. حكى لي عن الحقن والعذاب الذي يشعر به أثناء عملية الغسيل المفزعة، وكيف يراقب دماءه وهي تسير في الخراطيم..آلام تفوق حدود البشر، ليست آلام الغسيل، بل مجرد النظر لدمك وهو يمر بمراحل الغسيل المختلفة يشعرك بالاختناق والفزع..ولكنه تَعَوَّد، تَعَوَّد على وحدة الكلِى، وتعود على هذه الرحلات، ثلاث مرات أسبوعيًا..

أشياء كثيرة، يجب أن أعرفها هنا في تلك البلد.. حكى لي مرة عن ابنته الوحيدة التي تعيش الآن مع صديقها، وبرغم أنها حققتْ نجاحًا في عملها، وتسكن في حي راقٍ، لكنها لم تمد له يد المساعدة في يوم ما..

أتطلع إلى الوجوه حولي، شابٌ آخر أعرفه هنا، يستند إلى الباب، ثرثار جدًا هذا الشاب، يحلم بالأدب ويتصور أنه يومًا سيصل للقمة.. يدمن ماركيز وتشيكوف، يقول دومًا إنه ليس أقل منهما في شيء..

كتابه الذي ألفه منذ سنوات يقبع تحت إبطه مربوطًا جيدًا..تآكلت أجزاء من الرابطة، وظهرت حواف الورق الداخلي بلونه الأبيض الملوث بالأسود.. ما زال يحلم، ويحلم هذا الشاب.. ابتسمتُ له، بل ابتسمتُ للحلم الذي بداخله.. توقفت أنا عن الحلم منذ سنوات.. توقفت حتى عن التفكير في الحلم منذ فترة طويلة.

ها هي المحطة الرابعة تقبل.. سيغادر العجوز إلى مركز الكلى... الدقائق تمضي.. حياة أخرى تولد وتموت هنا.

رجعتُ إلى حالة التأمل.. سيذهب الشاب إلى المحطة المقبلة، سيغادر بالحلم.. يذهب إلى الناشر الذي يعده منذ سنوات أن ينشر روايته.. في مرة عرض عليّ أن أقرأها..أخذتُ نسخة منه، ووعدته بالقراءة..نوع آخرٌ من العلاقة غريب!

هل أنا الكائن الوحيد في الكون الذي له علاقات من هذا النوع..أين ذهبت تلك الرواية التي أخذتها منه؟!

لا أتذكر.. ربما أعطيتها لجرمين ولم أقرأها..آه لقد تذكرت لقد نقلتُ له رأي جرمين وقتها، وكيف يجب أن تنتحر بطلة قصته في النهاية لتكون النهاية مأساوية..

نعم يجب أن تنتحر..

هذا رأي جرمين..

أجفل يومها الشاب وقال: كيف هـذا ؟!.لا أرغـب أن تنتحر البطلة، سوف أفقد أجزاءً مهمـة مـن روح العمـل الدرامي لو فعلت هذا..

ولكنني قلتُ وقتها بخبث، وأنا أنقل كلام جـرمين:" إن كل أبطال قصص الحب الملتهب يجب أن يموت أي طرفٍ منهما بمرض غريب أو انتحار أو حادثة مفزعة حتى يشعر القارئ بالشفقة.. حيلة درامية معروفة.. وربمـا تجسـدت روحها بعد ذلك لتعود لتؤنس وحدة البطل كشبح!!"..

ضحك آنذاك وهو يقول:

- واضحٌ أن معرفتك عن الأدب محدودة..

وتركني وقتها ليهبط في محطته.. منذ متى؟. لا أتذكر.. ولكنني أتذكر أنه قال بعد فترة أثنـاء ركوبنـا المشـترك للمترو: إن الناشر يريد تعديل الرواية لتنتحر بطلتهـا فـي النهاية..

أكانت جرمين على حق؟!

مـن يومهـا يتجنـب نظراتـي.. ويبتسـم ابتسـامة مغتصبة..حاولتُ مرة بعدها أن أجاذبه أطراف الحـديث؛

لأقول له إن الرأي الذي ذكرته عن روايته لم يكن لي، ولم يكن رأيي أنا؛ لأنني لم أقرأ حرفًا منها، ولكنه أطرق برأسه وقتها، وغادر المترو قبل محطته، ولم يعطني الفرصة، وانسحب من أمامي..

صوت فتح أبواب المترو.. نزل الشاب صاحب الرواية بحلمه الثمين، ليته يظل محتفظًا بحلمه بين يديه. راح يتطلع فيما حوله، ويتأكد من إحكام الرابطة، وأنا ابتسم له في خجل.. محطة أخرى أخيرة وأصل إلى عملي..

محطة يجب أن أقضيها في التأمل.. تلك العادة الرهيبة التي أصبحت جزءًا من تكويني الشخصي ومن حياتي.

العربة أصبحتْ شبه خالية في هذا الوقت.

كان هناك ذاك الشاب الأسمر اللون، أصله أفريقي، يجلس في آخر العربة، وسيدة شابة تقرأ في كتاب، وصبي ضحوك.. أعرفهم جميعا بالطبع.. خمس سنوات على هذا المترو وهذا الخط عرفني الكثير والكثير.. سيغادرون المحطة القادمة معي، الإفريقي عمله غريب، ودومًا يتحسس المسدس الذي يخفيه تحت ملابسه، إنه سمسار عملة، يصطاد السياح القادمين لأول مرة، يسرق بعضهم، والبعض الآخر يتعامل معه بشرف، حسب حالته المزاجية

يومها، وهل قضى مع صديقته الفرنسية ليلة سعيدة أم لا.. إذا كانت الليلة سعيدة؛ فهنيئًا للسائح بأمواله وإلاّ...

كنتُ أحد ضحاياه يومًا، ولكنه عاملني بشرف.

السيدة تعمل في المصرف الذي يقابل عملــي.. بينمــا الصبي الضحوك طالب في الثانوية، ويرغــب أن يصـــبح طبيبًا في المستقبل، ويعمل بعد انصرافه من المدرسة فــي عيادة مشهورة لطبيب أمريكي مقيم هنا..

علاقاتي في المترو لا تنتهي.. وعلاقاتي في الخارج لا تنتهي..أحيانًا أظن أن الدنيا توقفت عندي تحكي، وتحكــي عن أسرارها، وتفتح لي نوافذ المعرفة التي لا قبل لي بها.

أخيرًا..أتت المحطة التي شعرتُ أنني انتظرتهــا هــذه المرة أكثر من المعتاد..

القاهرة.. سهير.. مترو حلوان.. سهير..

طالب جامعي هو أنا.. قصة الحب الفاشلة المعتــادة.. قصة وقرار السفر والهجرة.. كل محطات المترو تتشابه..

ايطاليا .. مترو.. جرمين.

سلوى... أحلام، وأحلام..

سيسليا..نابولي. نابولي..فرنسا..تورنتو..روما..

وأنا أقفز من الباب لأتلقى دفعة الهـواء البـارد تشـج رئتي..

لسعات من كرابيج الهواء..

أعيد إحكام ياقة المعطف..

وأشعر أنني أتسلل في طريقي للخارج..

رأفت. رأفت...الطاغوتي...

جاكلين..جرمين... جهاز الكمبيوتر..(هل أغلقته؟!)

سلوى ولبنان..

مصر وسهير.. رأفت..اللعنة...

فرنشيسكا وثغرها الباسم.. أبوهـا القعيـد.. العجـوز والغسيل الكلوي..

الإفريقي اللص الشريف..

الشاب صاحب الرواية..

علاقات في أحلامي وأحلامهم..

علاقات في أحلام ليس لها طريق..

أحلام لشاب ناري..

أحلام بلونها المتراقص..

لسعات الهواء البارد..

(٣)

تركتُ محطة المترو خلفي، تركتها وعقلي تركض بـه خيول الأفكار المجنونة .. هاهو الميدان يبدو أمامي شاسعًا في هذا الوقت شسوعًا ليس له حد.. المارة قليلون أو شـبه منعدمين.. مصنع "فبريكا" الذي أعمل به لم يفـتح أبوابـه بعد.. رجل الحراسة يقف على بابه وينظر إلـى الميـدان وعيناه مسمرتان، تتحركان باستمرار بين ساعة المصـنع الكبيرة والميدان الذي اختفى البشر منه في هذا التوقيـت.. أمامي عشر دقائق أخرى خارج المصنع.. ها هو مطعـم "جرستيني" فاتح أبوابه يستقبل الغرباء من أمثالي..

جرستيني.. ألماني الأصل ترك ألمانيا منذ سنوات بعيدة هربًا من الشيوعية والأفكار المتطرفة.. تركها هروبًا مـن الجدار الفاصل، حتى بعد أن هُدِم ذاك الجـدار، وعـادت ألمانيا أرضًا واحدة بعد سنوات طويلة من الانعـزال بـين طرفيها الشرقي والغربي لم يعد.. كانت أحواله المالية قـد ازدهرت هنا..

جرستيني يكن لي معزة خاصة..

كان في منتصف الأربعينات، وجهه مُحمر دومًا، وكأن هناك شريان خاص يغذى وجهه فقط ويوصل الدماء إليـــه بكثافة..

حوارات كثيرة ممتعة، وفاترة دارتْ بيننا أثناء ســاعة الراحة في المصنع..

وبرغم أنه ممنوع أن أغادر المصنع ســاعة الراحـــة.. ولكنني تحايلتُ على الأمـــر.. واســتطعتُ إقنـــاع الإدارة بالسماح لي أن أقضى تلك الساعة خارج المصنع.. ولكـــن غير مسموح لي بالتأخير دقيقة واحدة فوق الساعة..

يوم واحد تأخرتُ فيه فقط.. عندما حاول أحد اللصوص سرقة جرستيني، وكان اللص يستغل ندرة وجود عمال في المطعم في تلك الساعة.. ولكني فوجئتُ آنذاك باللص وهو يشهر مسدسه في وجه جرستيني.. لم أعلم تحديدًا ما دفعني لأفعل ما فعلته وقتها.. اندفعت بكل قوتي وضربت اللـــص من الخلف، فاصطدمتْ رأسه برخام البنك الذي يعد عليـــه جرستيني القهوة، فشجت رأسه، وسقط براد الماء المغلـــي على ملابسه.. جن جنون اللص ونحن نقيده وقتها.. ولـــم أعد إلى المصنع وقتذاك.. فقد حضر البوليس وكان لابـــد من أخذ أقوالي.. أُلغي اليوم، وتعرضـــت لخصـــمه مـــن راتبي..

أراد جرستيني وقتها أن يعوضني عن هذا اليوم، ولكن طبعي الشرقي جعلني أرفض بكل إباءٍ وشموخ.. ومن وقتها شدت عروة الصداقة بيني وبينه.. أنا المصري الوحيد المسموح له لديه أن يدفع حساب ما يأكله ويشربه شهريًا.. لي دفتر خاص في المحل وفي محفظتي أحتفظ دومًا بصورة منه.. فجرستيني برغم هذا دائمًا ما يغالطني في الحساب.. وعندما نقارن الدفترين يحدث صراع شهري خفيف.. دائمًا ما يكون هناك إضافات زائدة.. يعتذر هو بالنسيان فأضحك.. كثيرًا ما قابلت جرمين هنا في ساعة الراحة.. وأتتْ معي مرة إلى المحكمة لأشهد مع جرستيني بواقعة السرقة.. حُكِم على اللص بالسجن خمس سنوات.. ولكن ما أرعبني وقتها هي نظرات الوعيد التي رأيتها في عين اللص..

كل هذا دار في ذهني وأنا أدلف إلى المطعم.. استقبلني جرستيني فاتحاً ذراعيه محييًا.. فابتسمت وهو يقول:

- أهلاً مسيو فؤاد..

- أهلاً جرستيني.. فنجان قهوة مركز دون سكر.. وشطيرة..

اتسعت ابتسامتي وهو يقول:

- آه مسيو فؤاد.. مدينٌ أنت لي بـ١٢٠دولارًا..

كنت قد راجعتُ حسابه أمس فقلت:

– صباحك غير جميل جرستيني، ٩٠ دولارًا فقط.. أنا مدين لك بهم.

رد في اقتضاب ووجه الأحمر يزداد احمرارًا:

– تسعون دولارًا.. كلاّ، ١٢٠ فؤاد!!.. على كل سأراجع حسابك مرة أخرى..

رحتُ أتناول فنجان القهوة، وأنا أنظر إليه كل حين، وهو يراجع حساباته، وعيناه تتنقل ما بين الدفتر وبين أصابعي والكوب الذي أرفعه على شفتيَّ بعد لحظات..ثم قال:

– مضبوط أنت، ٩٠ دولارًا..

ضحكتُ وأنا أضع الكوب جانبًا، وأتأمل البخار المتصاعد منه:

– ألماني خبيث أنت يا جرستيني.. كان لابد أن يهزم هتلر لوجود شخص مثلك في شعبه.. ارتفعتْ ضحكات جرستيني، وكأنه يضحك أخر ضحكات حياته، ثم التقط أنفاسه وهو يقول:

– أنت مصري لئيم مسيو فؤاد..أنتم مصريون كنتم تطمعون في فوز هتلر.. وانطلقت ضحكاتنا صافية مجلجلة قبل أن أتجرع آخر دفعة من القهوة وأنا أقول له:

- ما أخبار ليلى..

- ليلى سافرت، لن تعود مرة أخرى فؤاد..

- حقًا جرستيني..

- حقًا فؤاد..ليلى تريدني مسلمًا وأنا لا أدرى حقًا.. حقًا لا أدري.

انطلقتْ ضحكتي وأنا أقول:

- أنا مسلم جرستيني.

- أنا أعرف ولكن أنت لا تعرف كل شـــيء..لا تعــرف معاملة المسلمين هنا..

انطلق نفير التنبيه من المصنع فجأة.. وسمعت جرســتيني يقول:

- ليلى لن تعود مسيو فؤاد.

- ربما جرستيني..أنا أيضًا ربما لا أعود يومًا..!!

انطلقت ضحكات جرستيني، ضحكات مكتومة منفعلة وهو يقول:

-أنت تعود.. دائمًا فؤاد مهما غبت ترجع.. تعود.

لَوَّحتُ له بيدي وأنا أتناول آخر جزء من شطيرتي:

- العمل لا ينتظر جرستيني..

وهببتُ واقفًا، وغادرته مسرعًا في اتجاه المصنع قبــل أن يغلق أبوابه التي تُغلق بعد صفارة التنبيه الأولــى بخمــس دقائق..

ولجتُ في المصنع، وأنا منكمش على نفسي تقريبًا..

كان الجو بالداخل أكثر دفئًا بمراحل، ولكنه ما زال باردًا.. بعض الزملاء قد استقروا بالفعل أمام الآلات الالكترونيــة المعقدة..

وبرغم أنني مهندس كمبيوتر فقد كان عملي شديد الغرابــة هنا..

عمل يقوم على قوة الملاحظة والتركيــز، أمــامي جهــاز خاص يقوم بدمج شرائح الكترونية دقيقة، وجهــاز آخــر يفحص درجة نقاء العينة وصلاحيتها.. وعلــيّ أن أظــل جالسًا لساعات، محدقًا في شاشة أمــامي.. لا مجــال لأن تطرف عينيّ للحظة.. ولا مجال للشرود هنا.. يجــب أن يكون تركيزي رهيبًا، حتى لا تفلت إحدى الشرائح اللعينة.. وقتها قد أتعرض للخصم..آلة أخرى تضــاف إلــى آلات المصنع الضخم.. لا مجال للارتقاء أو التطور.. لا مجــال سوى أن أتحول إلى عينين واسعتين محدقتين إلى الشاشة..

مجرد عينين.. لاشيء آخر.

لا فرصة لتبادل أحاديث خافتة هنا.. لا فرصة سوى أن تصبح ترسًا في مصنع هائـل، ترسًـا إن عطـب رمـوه خارجًا.. لا مجال لأي شيء سوى العمل..آلة جديدة تضاف إلى المجتمع الأوربي..آلـة منتجـة..أو ملاحظـة..آلـة والسلام.. وهذا أنا..

بالطبع أستطيع الفصل بين حيـاتي خـارج المصـنع وحياتي داخله، ولكنها من الصعوبة.. من إنسان إلى آلـة، ومن آلة إلى إنسان! .. قهقهتُ ضاحكًا بغتة..

التفت جاري جلهارت إليَّ، ثم تقطب جبينه عندما فلتتْ منه إحدى الشرائح الالكترونية التالفة.. وأصـدر جهـازه أزيزًا خافتًا.. نظر لي في غيظ، كأنه يصرخ فيَّ "ضحكتك هي السبب"..

وبرغم أن ضحكتي والتفاتي لم يأخذا أكثر من ثوان إلا أنها فرصة مدهشة؛ لتفر شريحة مـن أمـامي، ويطلـق جهازي الملعون أزيزه هو الآخر..أزيز مـنخفض ولكنـه معروف.. وقتها تطلعت إلى جلهارت، وانطلق هـو فـي الضحك إلى أقصى درجة..أوقفتُ الجهاز، ورحتُ أحـاول عبثًا أن أجد تلك الشريحة الملعونة دون جدوى..

استطاع جلهارت العثور على شريحته التالفة بسرعة، فهو دقيق وقت الخطأ.. وعاد جهازه للعمل..

وكان عليّ أنا أن أتوقف لمدة نصف ساعة؛ للبحث عن الشريحة التالفة، وبالطبع ستخصم تلك النصف ساعة أو ما يزيد عنها حتى عثوري على تلك الشريحة من راتبي اليومي..

أتحول مرة أخرى إلى عينين واسعتين تحدقان في خط إنتاج عليه مئات الشرائح.. بالطبع عندما أفشل في الحصول على العينة سوف أزعق على تينتو ليأتي بجهازه الخاص لفحص العينات كلها على الخط، وكل هذا الوقت الضائع مخصوم من راتبي بالطبع.. يا لها من فرحة أوروبية لعينة.. فرحة مملة!!..

بالطبع هناك طرق للتحايل أحيانًا، بأن ترشي تينو؛ فيأتي مسرعًا بجهازه، ويخلصك من المشكلة نظير مبلغ يتراوح بين دولارين وخمسة حسب أهميتك وحجم المشكلة..

كانت لحظات الترقب والحذر دائمًا هي ملاذي هنا.. يجب أن أكون قلقًا على شريحة الكترونية قد تفر من أمامي معلنة سخطها على سير العمل وعليّ..

قلقًا على راتب ملعون مغمس براحتي وتعبي.. أمـــامي الكثير لأتعلمه..الكثير جدًا..

كان تينتو قد توصل إلى العينة التالفة، وأعاد جهـــازي للعمل، وأبعدها جانبًا، وهو يتمتم في سخط:

– لماذا لم تستدعني منذ البداية.. هل تعلم كم سيخصـــم منك الآن؟!..مصري غبي..

بالطبع لم أكن كالآخرين.. لم أستدع تينتو فـــي البدايـــة لأني أريد دائما أن أكون يقظًا قلقًا..أن أكون مختلفًـــا عـــن الآخرين ..لا أريد لهذا التينتو أن يأخذ جزءًا مـــن أجـــرى وعلى سبيل الرشوة.. وهو يعلم هذا، وربما لهذا تأخر فـــي استخراج العينة التالفة؛ ليزيد من خسارتي اليوم..

كانت علاقتي بالتينتو علاقة شديدة الحذر دومًـــا؛ فهـــو ناقل جيد للأسرار، بل هو رهيب في تلفيق التهم.. ولكنه لم يقلقني يومًا.. فما زالت أحلامه أحلام قذر؛ يريد أن يسرق ما يطوله من الآخرين بأي طريقة كانتْ..

خرجتُ في فترة الراحة كالمعتاد..أخذتُ غداءً خفيفًا عند جرستيني.. وبالطبع كانت مشكلة ليلى ما زالتْ تشغل باله، وبالطبع كان يجب أن يحشرني في هذه المشكلة.. علاقتـــي به علاقة تامة متفهمة.. قلـــت لـــه عـــن تينتـــو وكيـــف يترصدني..

ضحك وهو يقول:

- تينتو ذئب.. وأنتَ ذئب.. والـذئاب لا تأكـل لحـم بعضها.. ابتسمتُ ابتسامة فاترة وأنا أقول:

-أهذا رأيك فيّ؟!

قال ووجهه محمر كالعادة وابتسـامة صـغيرة محببـة مرسومة على شفتيه بدقة:

- بالطبع فؤاد أنت ذئب.. لكن هناك مثل مكسيكي يقول من يزرع الخضروات لابد أن يكـون لـه نصـيب مـن السلاطة..

ضحكتُ وأنا أقول:

- وما دخل المثل بتينتو؟!

ضحك وقال:

- ذئب أنت فؤاد.. ليلى لن تعود.. صح ؟!

قهقهتُ رغمًا عني؛ فقد كنتُ أنتظر هذا السؤال، فقلتُ:

- أسلم جرستيني.. قل لا إله إلا الله محمد رسول الله.. تعد ليلى.

تغيرت ملامح وجهه بغتة، وهو يدفع طبق الشوربة من أمامي ثم قال:

– فقط فؤاد..؟؟ لا أظن ليلى ترضى بهذا.. ليلى تريدني مسلمًا فؤاد.. هل تفهم ؟!

قلت في هدوء:

– قل جرستيني ورائي لا إله إلا الله محمد رسول الله.. ستصبح مسلمًا وقتها..

زاد وجهه احتقانًا؛ حتى شككتُ أن دماء وجهه ستغرق مائدتي وهو يقول:

– أنت ذئب فؤاد.. ذئب حقيقي.. ليلى تريد إسلامًا بحق.. مسلم، جامع، صلاة، صوم، إسلام حقيقي..أنت ذئب وتينتو ذئب.. نحن نعيش في معسكر مغلق للذئاب الجائعة مسيو فؤاد..

ارتفع نفير المصنع فقلت وأنا أغادر:

– ليلى قد تعود جرستيني قد تعود..

وغادرتُ المطعم مسرعًا.. وأحلام ورؤى أخرى تضاف إلى رصيد أحلامهم التي لا تنتهي هنا.. أحلام أن تعود ليلى..

أحلام أن يغادر أحد الذئاب مجتمع الذئاب الرهيب ويفك الأسر..

أحلام بطعمها الناري الملتهب..

أحلام لا سبيل إليها هنا..

في منطقة الذئاب...

(٤)

مضت الساعات وانقضى اليوم، اعتذرت عـن عملـي لفترة ثانية في المصنع وهي كرجل أمن، ثمـان سـاعات أكون فيها مجرد عين لتتبع مجموعة مـن الالكترونيـات اللعينة، وستّ ساعات كعين حارسة للمصنع..أتجول كعين في المصنع للاطمئنان على سير الآلات، ثم الرجوع إلـى البوابة والمكوث خلف مكتب أتطلع للميدان الـذي يغـص بالمارة وقتها، ورغم برودة الجو.. أكون مجرد متفرج على الخلق المتحركين، وعندما ينعدمون في الميدان تنتهي فترة عملي، فأعود إلى الشارع الخالي.. أدخل الميدان وهو خال من البشر وأغادره وهو في نفس الوضعية.. عجبًا!..

اعتذرتُ عن ذاك العمـل البغـيض الـذي أكرهـه، واستقللتُ المترو مرة أخرى في طريق عودتي..

كل انتقالاتي هنا تتم من خلال المترو.. أفكر في شراء سيارة مستعملة توفر لي بعض الوقت، ولكنني أكره القيادة للأسف.. ربما كانت عقدة..

لم أمارس عادتي في المترو في التأمل فقد كنـت شـبه فاقد للوعي، وكنت أتحرك كآلة.. أتحرك دون شيء مـن

الإدراك الذهني.. تحول عقلي وجسدي إلى دوامة.. قدمتُ طلبًا اليوم للانضمام للمخازن.. ربّما أتحول حينها من مجرد عينين إلى آلة جرد تتبع حركة الوارد والصادر..آلة أخري للإحصاء.

كنت متوترًا بشدة وأنا أحاول أن أحافظ على عينيَّ مفتوحتين.. ولكن كأن هناك ثقلاً رهيبًا يضغط عليهما.. انتبهت بغتة أن المحطة التي أنزل بها قد فاتتني.. إذن عليَّ أن أنزل المحطة المقبلة، وآخذ عربة أجرة لمحطة واحدة، أو انتظر المترو الآخر..ولكنني قررت أن أغادر هنا، واستقل عربة أجرة للمنزل.. فلم أعد أستطيع..

فيرا يلا سكالأ

فيرا براكا

فيرا نوفولى

فلينا ونالى.. فلينا .. مون فركسى..

شوارع كثيرة تتراص فى ذاكرتي..

إنني قريبٌ هنا من رستورنتٍ كفلينوا.. أأذهب للعشاء هناك؟.. سحقًا.. الميزانية.. سحقًا..

عيناي مثقلتان، وأطرافي ترتعد..وأحتاج إلى النوم.. تلك النعمة في النوم..ظلام يطبق عليك لتغوص في بحار النوم

تاركًا الحياة خلفك.. النوم هنا يصبح حلمًا.. يا لهـــا مـــن حياة!.

رحت أبحث بعيني شبه المغمضتين عن أي عربة تقلني إلى البيت..

مرت دقائق قبل أن أوقف سيارة أجرة، وارتمـــي بهـــا، وأنا أعطي السائق العنوان..

فيرا يلا سكالأ

فيندى

ربرتو كفالى

جورج ارمانى

رستورنت ديفد..

البرجيلوا

وأخيرًا وجدتُ نفسي في الشقة وأنا شبه ميت.. ارتميتُ على السرير..

أريد أن أملأ كوب الماء.. ولكنني لا أستطيع التحـــرك كأنني استنفدت كل قواي اليوم..

لأنام وأتمنى ألا أصحو في ذاك الميعاد اليومي؛ لأشرب كوب الماء بنفس الروتين اليومي..

بغتة أرتفع جرس الهاتف.. لن أرد..

أنني تعب للغاية..

لن أرد..

راح الهاتف يواصل رنينه في إلحاح غريب..

لا فائدة..لأقم للرد، وأملأ كوب الماء.. حتى أتجنب كل شيء..

- آلو..

- لا تغلق الخط أنا رأفت.

- رأفت !.. ماذا تريد ؟!

- لست أنا من يريد ؟

- جرمين مرة أخري.

- كلاً.

- قل وإلا أغلقتُ الخط فورًا.. ماذا تريد ؟

أتى صوته عصبيًا وهو يقول:

- الطاغوتي يريدك.. منير الطاغوتي..

أجفلت للحظة، ولكني تماسكتُ، وأنا أهتف:

- ماذا يريد هذا الشخص مني؟!

- لا أعلم تحديدًا ولكنه اتصل بي اليوم وقال إنه يريد أن يراك.. واليوم.

- ما الذي يحدث ؟!

- صدقني لا أريد إغضابك مرة أخرى.. ولكني حقًا لا أدري..

تذكرتُ الحفلة وتذكرت الطاغوتي بغتة بهيئته الرهيبة..أتى صوت رأفت ليقطع تذكري وهو يقول:

- إنه يجمع معلومات عنك منذ فترة.. بل بالأصح منذ الحفلة..

لم أدرِ ماذا أقول لهذا الغبي الأحمق، ولكني هتفتُ فيه:

- أنت السبب..

كانت جرمين يومها تضج أنوثة على غير العادة.. وكانت توزع ابتساماتها على الجميع في الحفلة.. كنتُ برفقتها تائهًا.. لم أعتد بعد هذا النوع من الحفلات.. ابتسم رأفت وقتها وهو يُعرّفني ويُعرفها بمنير الطاغوتي..

نظرة في عين الطاغوتي لجرمين لم ترحني.. هناك نظرة تشعر أنها تخترقك.. هذه هي نظرات الطاغوتي..

كنت قد كففتُ وقتها من التحول إلى عينين واسعتين، واكتفيتُ بدور المراقب للأمور.. ولكن عندما دعاها للرقص، كان شعور غريب ينمو بداخلي.. شعور الشرقي الذي تنزع منه أرضه غصبًا عنه.. حتى لو كانت أرضًا بور..وأمام عينيَّ راح يراقصها، وهو يتحسس جسدها بطريقة مقززة ذكرتني بـ"الشيمي" جساس البهائم في قريتنا..

وكأنه يقيس مدى أهميتها بيديه راح يراقصها.. كانت يداه تتحسسان جسدها بخبرة وحرفية.. حتى صدرت آهة خافتة من بين شفتيها.. انتفض الشرقي الذي بداخلي وقتها.. اندفعتُ لأبعده عنها دون وعي .. سحبتها من يدها.. وبالفعل أشهر حراسه مسدساتهم في وجهي وقتذاك.. ولكنه أمَرهم بإشارة من يده أن يتركوني.. وغادرنا الفيلا..

جاء صوت رأفت؛ ليعيدني إلى الواقع مرة أخرى وهو يقول:

– لم سكتت ؟!..أنت السبب ولست أنا..أنتَ أحمق..

هتفت به بغضب:

– بل أنتَ غبي وشاذ.. كان يجب أن أدرك هذا ومنذ البداية حينما حاولت إقناعي بالرجوع وتكملة الحفلة.

ضحك وهو يقول:

- بل أنت الغبي الآن يا صديقي.. لقد أحرجــت منيــر الطاغوتي أمام المدعوين.. وهو لا ينسى بسهولة..

وجدت نفسي أصرخ فيه:

- والآن ماذا تريد ؟.. ما الذي تدبرونه لي ؟ فأنا أريــد أن أنام.

- كما قلت لك الطاغوتي يريدك اليوم فــي العاشــرة مساءً.. وبهذا تكون مهمتي قد انتهت.. حذار أن تتأخر..

أغلقت الخط في وجهه وأنا ارتجــف مــن الغضــب، ارتجف في عنف وشدة.

اللعنة !. سحقــاً!

أفكار رهيبة عصفت بي.. لماذا يريدني هذا الطاغوتي.. هل يريد الانتقام.. الانتقام من ماذا ؟!.. ومــاذا يربطنــي به..إنه موقف وانتهى.. فلماذا تذكره الآن بعد ثلاثة شهور كاملة من حدوثه..

أشياء كثيرة طردتْ النوم من عيني

جرمين.. لماذا الكل اليوم هكذا ؟! لماذا ؟!

جرمين لم تتصل بعد، هل كلام علاء حقيقي؟! وما دخل الطاغوتي بقرارها الذي أبلغني به علاء؟!.. ولماذا اتصل رأفت ليقول ما قاله ؟!

إذا كان الطاغوتي يريد جرمين، لتكن له إن أرادت!! .. لن أربط حياتي بمشاكل جديدة أنا في غنى عنها.. يكفيني المصنع، ويكفيني ما أنا فيه..

هرب النوم ليأتي القلق.. لأذهب إلى جهاز الكمبيوتر.. فتحته ودخلت إلى "الماسنجر"..

علاء كالعادة "أون لاين".. لا أثر لسلوى أحتاجها الآن.. أغلقت صفحة البريد، فتحت الآخر السري؛ لعلني أجد سلوى هناك.. رسالة غريبة أتت منذ دقائق.. رسالة فتحتها وأنا أتعجب من أين أتت ومن صاحبها؟!

الرسالة مكتوبة بالعربية.. عجبًا!

نصها يقول"لا تتأخر عن موعدي اليوم.. أنتظرك في العاشرة مساءً.. لا تتأخر لا أحب الانتظار"

إمضاء منير الطاغوتي..

هذه المرة تحولتُ بحقٍ إلى عينين محدقتين إلى الشاشة والرسالة المتراصة حروفها أمامي..

كيف وصل هذا العنوان البريدي للطـــاغوتي ؟!.. إنـــه عنوان شخصي لا يعرفه سوى سلوى.. هل هنـــاك شـــيء يربط سلوى بالطاغوتي..ما هذه الأفكار؟!

إنني أتخبط في لجة من الأفكار الرهيبة التي تعصف بى أصبحت مجرد عقل يدور وعينين محدقتين..عجبا !

أغلقت صفحة البريد كأنـــه تلبســـه شـــيطان رهيـــب.. أعصابي ملتهبة..أحتاج للنوم.. حركاتي ثقيلة

سلوى. سلوى.. علاء.. جرمين كوب الماء..

أحلام كثيرة لا تأتي، أغلقت جهاز الكمبيوتر، وعـــدت لأرتمي على السرير وشعور بالتحدي الممزوج بالقلق ينمو داخلي.. لن أذهب يا طاغوتي لن أذهب..

لن أذهب ..

لم أعلم متى جاءني النوم..ومتـــى غلبنـــي.. الأحـــلام والرؤى..أحلام كثيرة وعديدة تضرب رأسي، ولكنها ليست لي.. فرنشيسكا وثغرها الباسم، الشاب الغاضـــب صـــاحب الرواية.. العجوز والغسيل الكلوي ورحلته الأسبوعية..

أنجلي ماريا وحادثة الإجهاض..

سيسليا .. ميلانو .. روما ..فرنسا..سهير ومترو حلوان ..

سلوى

أحلام الأب القعيد ..

جرستيني وليلى..

الإسلام هو الحل..

ليلى جرستيني..

ليلى لن تعود

لن تعود

لن تعود

(٥)

كان استيقاظي مفاجئًا وعجيبًا وصادمًا لحد كبير.. كانــت هناك يد تربت على وجهي.. تربت في هدوء وثقة.. كنت أطرد الأحلام والرؤى عن رأسي.. وبعينين شبه مغمضتين تطلعت إلى اليد التي تربت على وجهي بأسلوب كثيرًا مــا اعتدته في السابق..إنها جرمين..أظــن أنــه حلــم آخــر يطاردني.. ولكني حاولت أن أعتدل على سريري وأنا أهزّ رأسي ويدي تضغط زر الأباجورة المجاورة للفراش..

فجأة وجدتُ كل أعصابي تنتفض، وشعر رأسي يقــف بطريقة غريبة، وقد تخللتْ برودة عظيمة أطرافي.. كــان الضوء الخافت المتسلل من خلف زجاج نافذة حجرة النــوم قد رسم ظلالاً وأشكالاً غريبة على الحائط.. ولكنني انتبهت واتسعتْ عيناي، وأنا أتابع ظلين لشبحين يرتســمان علــى الحائط بصورة مفزعة، وجدت نفسي أهتف بالعربية:

تبًا..من أنتما؟!

لم يفهم أيًا من الرجلين ما أقول، ولكن ملامح الجمــود والقسوة المرتسمة على وجهيهما جعلتني أهب، وجــرمين تحاول أن تهدئني، وأنا أصرخ في عصبية:

- من أدخل هؤلاء إلى هنا ؟!

هزتْ رأسها في بساطة، وهى تقول بلكنة ساخرة:

- أنا أدخلتهما ؟

وجدت نفسي أسقط في يدها وأنا أغمغم:

- لماذا ؟!.كاتسو..

هتفت هي في غباء:

-لأنهما يريدانك..

صرخت فيها بغضب منفعل، وأنا أقفز في مكاني إثــر تعلق الرجلين بيدي:

- كاتسو..

اقتادني الرجلان إلى السرير مرة أخرى، بينما جــرمين تقف موقف المتفرج وعلى شفتيها ابتسامة ساذجة.. اللعنــة عليها، كنت أريد أن أفهم ما يجرى، ولكــن عقلــي كــان يرفض التصديق.. كان يجب أن أهدأ حتى أســتوعب مــا يجرى.. الساعة تقترب من الثانية صباحًا..

جلست جرمين على الكرسي المقابل للسرير، بينما كنت أنا شبه محاصر بالرجلين اللذين جلس أحدهما على يمينــي والآخر على يساري..

هناك الكثير فعلا لأتعلمه هنا.. الكثير جدًا..

انتبهت على صوت جرمين، وهى تضغط زر إضاءة الغرفة؛ فاختفت الظلال المرسوم على الحائط، فتقلصت مشاعري بعض الشيء، وهى تقول بنفس البساطة الساذجة:

- لماذا لم تحضر ؟!

قلت في ذهول وعصبية:- أحضر أين؟!

تنحنحت وهى تضع إحدى ساقيها على الأخرى.

اللعنة.. ألم تقل لعلاء إنها تنهى علاقة الحب بيننا.. كيف كنت أحب هذه المخلوقة ؟!.. أحب ؟!

وهل ما كان بيننا حبًا؟

قالت بهدوئها الغريب والمستفز اليوم:

- منير أنتظرك.. ولم تحضر.. لماذا ؟!

إذن الموضوع هكذا.. هناك أشياء مريبة تحدث حولي لا أفهمها.

أردت أن أسألها ما دخلها وما علاقتها بالطاغوتي، وبرغم أنني لاحظت أنها تقول منير دون ألقاب.. ولكني لزمت الصمت وأحد الرجلين يكمل:

– من الأفضل لك أن ترتدي ملابسك وتـأتي معنـا.. وأظن الهدوء يلزمك الآن.. فرق القوة في صـالحنا كمـا ترى..لم يكن الوقت يسمح لأناقشهم في مصـالح القـوى وفرقها؛ لذا بدا أن مجاراتهم الحل الوحيد، فقلت في هـدوء وأنا أخاطب الرجلين وأقف:

– ليكن.. ولكن اسمحا لي أن أدخل الحمام..

وارتفعت ضحكاتي دون سبب..

هزتْ جرمين رأسها وكأنها المسئولة عني.. فأفسح لي الرجلان المجال للتحرك؛ لأقف وآخذ طريقي إلى الحمام..

بالطبع كان عقلي يدور بسرعة مليون لفة في الثانيـة، ولكني طردت كل شيء جانبًا.. وقررت أن أتحـول مـن إنسان إلى آلة مرة أخرى كعادتي عندما أوجه موقفًا أفشـل في فهم فحواه..

عدم الفهم آنذاك نعمة..أخذتُ دشًّـا سـريعًا.. وحلقـت ذقني، واهتممت بتصفيف شعري، وأنا أطلب من جـرمين أن تناولني ملابسًا خاصة.. كنت أتأنق، وأبالغ في تـأنقي؛ حتى كأنني تصورت أنى في طريقي لمقابلة سـعيدة مـع سلوى..

سلوى لماذا أتذكرها الآن ؟!

أشعلت سيجارة ورحتُ أدخنها في الحمام، وأنا أتبادل سباب بذيئًا مع جرمين.. تتخلله ضحكاتها الصارخة، وكأنها سعيدة باللعبة.. وكنت أزيد من السباب لها؛ حتى أطرد حالة القلق بداخلي؛ وحتى لا أظهر بمظهر الجبان الخائف..

وهى تزيد من علو ضحكاتها.. بالفعل هي سعيدة بتلك اللعبة الساذجة..انتهيتُ من ارتداء ملابسي، وشاهدتُ ملامح وجهي في المرآة يبدو شاحبًا، ولكني ما زلتُ أحتفظ بوسامتي..الرجلان وجرمين بالصالة ينتظرون خروجي.. ويجب أن أخرج إليهم في صورة الفارس الشرقي..ربما فقدت حصاني العربي في الغربة..ولكني ما زلتُ أحتفظ بروح الفارس بداخلي..خرجتُ وأنا أرسم على شفتي ابتسامة عجيبة وأقول:

- أظن أنني جاهز لمقابلة رئيسكم الآن..

تأبطت جرمين ذراعي كما كانتْ تفعل دومًا، وهى تبتسم ابتسامتها التي أصبحتُ أكرهها الآن دون سبب، ثم قالت:

- كنت أعرف أنك عاقل حبيبي..

وكأننا ذاهبان إلى فسحة جديدة راحتْ تربتْ على وجهي، وتتحسس نعومة بشرتي، وأنا أدفع يدها جانبًا في هدوء..تحركت معهم وأنا أتذكر كلام جرستيني لي..

أنتَ ذئب فؤاد.. ذئب حقيقي..

وفجأة ارتفعت ضحكاتي بينهم، وهم ينظرون ليّ؛ كأنهم يتابعون شخصًا قد جن..

كانت هناك سيارة بانتظارهم، وبمجرد أن رآني السائق أدار محركها..إنها رحلة.. رحلة مهما كانت..

لن أشغل عقلي بالطاغوتي فما زلتُ أتحرك كآلة الآن، حتى وأنا ذاهب رغمًا عني للقائه..

مهما كانت نتيجة اللقاء فلن تهزمني يا طاغوتي.. لن تهزمني الغربة..ملامح غريبة راحت تترى إلى عقلي.. ملامح نسيتها أو تناسيتها منذ فترة طويلة.. ملامح عرفتها هنا، وهناك..ملامح تربطني بالوطن.. وملامح تبعدني عنه وعن أي وطن..أفر بخيالي بعيدًا عنها..وعنهم.. ورأفت..الطاغوتي والمصنع، وجلهارت، وسهير وخط حلوان، وليلى..وعلاء.. جرستيني.. والسيارة تقطع الشوارع..لبنان وسلوى.. سلوى ولبنان.

صور كثيرة وغريبة..أنهم كثيرون و لستُ منهم..

ولكنهم كانوا وما زالوا يرحبون بي، ويختفون في أحلام غيري..إنهم ملامح فقط..

ملامح من أحلام متأججة...

(٦)

كانت السيارة تمضي بنا وأنا أمضي داخلها في لجة من الأفكار المبعثرة التي لا تنتهي.. أفكار ورؤى وخيـالات، وكأن عقلي قد تحول إلى حقل مغناطيسي يجذب كل الأحلام والظلال والخيالات..أشياء أشبه بالحلم وما هي بحلم.. طرق محفورة وغائرة في نفسي.. طرق تحفر أخاديدها على وجهي فيبدو أشد شحوبًا.. لم أركز في السيارة وهي تقطع الشوارع بسرعة في هذا الوقت من الليل..

مرّ وقت لم أستطع أن أقول إنه كان طويلاً أو قصيرًا.. مجرد وقت يمضي.. كم هي الأوقات التي تمضي دوني..

أبواق السيارة ترتفع أمام باب فيلا الطاغوتي، ما لبثتْ أن فُتحتْ البوابة الكترونيًا..

دلفنا للداخل.. نظرتُ لجرمين نظرة متفحصة.. ما زالتْ تحمل ابتسامتها الساذجة بين شفتيها.. تأملتُ وجهي في المرآة الأمامية، ولاحظتُ وجهي الرجلين اللذين يحصرانني بينهما.. وابتسمت لا أعلم لماذا ؟.. ولكنه شيء يدعوني للابتسام في أشد المواقف حلكة..ابتسمتُ فقط على ما أظن

كي أطرد مخاوفي جانبًا..أهي رحلة مواجهة أم رحلة موت..

للحظات بدتْ لي الفيلا بفخامتها والأضواء المتناثرة هنا وهناك كأنني أدخل بقدمي مغارة "علي بابا".. ولكن هل أستطيع أن أنجو بنفسي من الأربعين حرامي.. لم أكن يومًا "علي بابا"..

اتسعتْ ابتسامتي لهذا الخاطر وأنا أترجل من السيارة بعد أن وقفت أمام الدرج المؤدي إلى بهو الفيلا.. لم أكن أشعر ببرودة الجو حولي ولكن كان هناك نوع آخر من البرودة ينمو بداخلي برودة قاسية ومفزعة..

عندما دلفتُ للداخل وجرمين متعلقة بيدي كطفلة صغيرة في صحبة أبيها في مدينة ملاه..قلتُ وأنا أضع أول قدم لي على قاعة البهو:- من الواضح أن الليلة تخفي لي الكثير والكثير جدًا..ارتفعتْ ضحكة جرمين الصارخة للغاية.. وانسحب الرجلين بعيدًا عني.. بينما سحبتني جرمين من يدي لتجلسني على أقرب مقعد وهى متشبثة بي بطريقة طفولية غبية..

حاولتُ أن أزيح يدها جانبًا، ولكنها بدت كأنثى العنكبوت التي أوقعتْ ذبابة في شباكها.. وكنتُ أنا هذه الذبابة..

قهقهتُ فجأة، فبدوتُ مجنونًا بحق.. هزّتْ رأسها وكأنها تفهم جنوني..

أشارتْ لأحد الخدم فأتى بمجموعة كاملة من الخمور ليضعها أمامنا..

نظرتُ لجرمين ولكؤوس الخمر التي تراصت أمامي.. نظرة غاضبة.. ضحكتْ هي وتناولت أحد الكؤوس وهى تقول:

- إلا تحب أن ترشف بعض قطرات من الويسكي معي.. يوجد هنا خمر عمر الخيام يحبه الشرقيون..

ازدادت نظراتي تهجمًا، وأنا أغمغم بصوت غاضب:

- إنا لا أشرب وأنت تعلمين..

ضحكتْ، وهى ترتشف قطرات من كأسها، وتلاعب طرف الكأس الزجاجي بلسانها حتى تصورتُ أنها أفعى تسعى للدغ.. فبعدتُ بوجهي عنها..

وضعتْ كأسها جانبًا، وراحتْ تداعب أذني بلسانها..أحسستْ بأنفاسها المخمورة وأحسستُ بلزوجة القبلة على خدي وملمسها اللزج المقيت..فأبعدتُ وجهها عني، وأنا أصرخ بصوت مكتوم متحفز:

- كفى عبثاً..أنتِ مجنونة..

أحمر وجهها وهي تقول:

– وكفاك أنت سذاجة.. شرقي متخلف..

أردتُ أن أصفعها، ولكني اوقفت يدي في الهواء قبل أن تهوى على وجهها.. والشرقي المتخلف بداخلي كما تقول رفض صفعها..ولكني دفعتها بيدي بعيدًا عني..

مرت فترة ونحن متباعدان.. نظرات غضبة نتبادلها بيننا.. نظرات تهديد ووعيد، ونظرات ساذجة حائرة.. نظرات مختلفة وممقوتة..

كان الانتظار قد طال، ولم يظهر الطاغوتي، كأنه يعذبني بالانتظار..

كم ينمو شعوري نحو جرمين الآن بالاحتقار والازدراء.. رحتُ أتململ في جلستي.

كنتُ أعود مرة أخرى لنفسي كإنسان.. ولكنني علقتُ عينيّ بالأضواء المتناثرة في البهو وباللوحات العالمية المنتشرة على الجدران، وعلقتُ عينيّ لفترة طويلة حتى أكتسب شعور الآلة بداخلي مرة أخري..

كانتْ جرمين تواصل ارتشافها للخمر، ولكنها هذه المرة كانت تجرع الدفعات بسرعة وعصبية واضحة.. إنها تفقد ثقتها بنفسها.. تربعتْ على الأريكة وخلعتْ حذاءيها وأخذتْ

تداعب أصابع قدميها وتفركهم..إذن هـــي تمـــر بمرحلـــة عاصفة من التوتر والقلق بالفعل.. فهكـــذا حالهـــا عنـــدما تتعرض للإهانة وتغضب.. بدتْ كطفلة لي مرة أخـــري.. وبدتْ مشاعر الازدراء تخفتْ بداخلي وتتقلص..

وأخيرًا وبغتة قطع الطاغوتي كل شيء.. كـــان يهـــبط السلم في بطء متعمد وهو يرقبني بعينـــيّ صـــقر متحفـــز وبخيلاء طاووس يتبختر في هبوطه.. وبخطوات مدروسة ونظرات متفحصة راح يرمقنا، ويـــدرس بعينيـــه موقـــع جلوسي وملامحي المنقبضة لظهوره، وملامـــح جـــرمين ووجهها الذي اكتسى غضبًا ومقتًا بلا حدود.. كان يصر أن يظهر أمامي بمظهر البطل الشرير، الموجـــود فـــي كـــل القصص والروايات.. حتى اسمه أختاره لهذا الســـبب، أن يكون طاغوت.. يرفض اسمه الحقيقي منير ثابت، ويعتـــز بالطاغوتي.. ابتسم ابتسامة صفراء لزجة وهـــو يقتـــرب، ابتسامة ذئبية أخري تضاف إلى حياتي.. لبرهة ظل صامتًا متأملاً، وبعينين متفحصتين دارستين للوضع كان مســـتمرًا في تطلعاته...

لوهلة ظننتُ أنه كان يطلبني خطأ.. ولكنه ابتسم ويـــده تقترب من أحد الكؤوس الممتلئ بالخمر وارتشف منه وهو يقول:

- دائما ما أحسن اختياري للصنف..

وضع الكأس جانبًا، وجلس في مقعد مقابل لنا بهدوء وثقة وهو يتابع:

- بالطبع تأكلك الحيرة لمعرفة السبب الذي له وجهت لك دعوة..

قلت في لامبالاة:

- لم تكن دعوة سيد منير.. بل هي اغتصاب لوقتي واغتصاب لراحتي..

ما زالت الابتسامة الذئبية مرسومة على شفتيه وهو يقول:

- إنك تبالغ فؤاد.. اسمح لي أن أقول لك فؤاد دون ألقاب.

قلت في صوت هادئ:

- قل ما تريد.. المهم قل ما تريد الآن فوقتي ضيق..

ارتفعتْ ضحكته بطريقة مستفزة:

- لا تقلق على وقتك معي.. فوقتك معي يزداد أهمية..

وبرغم أن أعصابي كانتْ ملتهبة ولأقصى درجة، ولكنني هززتُ رأسي، وأنا أقول بصوت حاولتُ أن أجعله محايدًا:

-هل تأذن لي في سؤال ؟.

ابتسم ونظراته ما زلتْ تتفحص وجهي وهو يشير لي أن أسأل ما أريد..وجدتُ نفسي أقول:

- من أين حصلتَ على بريدي الالكتروني السري ؟.

ازدادت ابتسامته مقتًا وهو يقول:

- لا تشغل بالك أنني أعرف ما أريد وقتما أريد..

تساءلتُ مرة أخري:

- هل لسلوى دخل بهذا ؟!

ابتسم؛ فأردفتُ قائلا:- علاء أم رأفت ؟!

نظر لي وهو يتابع ضاحكًا:

- مشكلتك إنك تحصر نفسك في الشخصيات والأسماء.. أبعد كل هذا عن ذهنك..إنك للآن لم تسأل أهم سؤال لماذا دعوتك إلى هنا مرة أخري ؟

قلت في صوت آلي:

- بسبب جرمين ؟!.

انطلقت ضحكاته عالية ولأقصي درجة واهتزّ جسده على الكرسي، ثم تناول كأس الخمر ورشف منه رشفة سريعة وهو يواصل ضحكاته، التي قطعها فجأة، وهو يقول:

- برغم أني من هواة اقتناء التحف..ولكن ليست جرمين هي ما دعوتك لأجله..

انتبهت جرمين عندما سمعت اسمها يتردد ويتكرر عدة مرات وابتسمت ابتسامتها الساذجة ولكنها وقفت وتوجهت فجأة إلى جهاز تسجيل وضغطتْ زر التشغيل.. وراحت تتمايل بطريقة مستفزة على الموسيقي، بينما ارتفعتْ ضحكات الطاغوتي وهو يتابع رقصها المتمايل ثم قال:

- تحفة..أليس كذلك؟.

لم أجد بدّا من الحديث الهامس؛ فصوت الطاغوتى يجبرك أن تهمس في حديثك؛ لتماثل الفحيح الذي يخرج من شفتيه على صورة كلام، فقلتُ:

- وماذا بعد؟!

ابتسم ابتسامته الذئبية وأردف يقول:

- اسمعني جيدًا وحاول أن تستوعب ما أقوله حرفيًا..

- إنني هنا كي أسمعك على ما أظن..

- جميل إذن متفقين.

- على ماذا ؟!

- على أنه يجب أن تسمعني.

- وهل لي خيار آخر ؟

- أنني معجب بك ومنذ يوم الحفلة..أرى فيك شبابي.. تصور هذا.. كنتُ مثلك شرقي متحفز للحياة الأوربية..

- لا أفهم ما الذي تريده منى بالضبط.

- سأقول لك ،هل تتذكر كيف قدمت إلى هنا؟.. أتتذكر إبراهيم الحارون؟!.. وقتلك له.. أظن أنك لم تنس بعد !..

وارتفعتْ ضحكاته المميتة بدرجة مفزعة..

سقطتُ في يده بغتة، وارتفع الفزع على وجهي والصور تترد في مخيلتي بجنون ووحشية.. ستّ سنوات أرى أولها هناك وعلى مقهى في القاهرة وكلمات إبراهيم تتردد في أذني بغتة: ستة عشر ألفًا فقط ونكون هناك.. صدقني فؤاد نحن مطاردون هنا، ولن نفعل أي شيء في وطن يرفضنا.. الخطة بسيطة سنذهب إلى ليبيا وسنمضي هناك عدة شهور.. بعدها سنعبر إلى أوربا عن طريق البحر.. الخطة مضمونة.. هنا ينتظرنا الفراغ والموت..أحلامك فؤاد هناك، هناك .. في مصر لا أحلام.. وأحلامك أنت فؤاد أحلام نارية سوف تقضي عليك هنا.. فكر فؤاد.. فكر..

انتبهت على صوت الطاغوتي وهو يقول:

- أظن الآن لابد أن نعمل بوجوه مكشوفة..

- هات ما لديك.

- إنها فرصة العمر بالنسبة لك فؤاد فرصة ذهبيـــة.. اثنان مليون دولار.. صفقة على طبق من ذهب..

ارتفع حاجباي عجبًا، ولكني قلتُ:

- هات ما لديك.. كلي آذان مصغية..

وأخذ يسرد على مسامعي الصفقة، وعينـــاي تـــزدادان اتساعًا إلى ما لانهاية.. مستحيل!.

سلوى.. فت.. مستحيل!.

جرستيني وكلماته: أنت ذئب فؤاد.. والذئاب لا تغـــادر القطيع..

وكلمات ابراهيم في نفق الموت..أنها الأحلام يا فؤاد..لا تتركها..

الأحلام..أحلامنا وأحلامك..

(٦)

تركت فيلا الطاغوتي خلفي ..أصرّ أن يوصلني سائقه مرة أخرى.. في منتصف المسافة طلبتُ من السائق أن ينزلني هنا..كانت تباشير الصباح قد بدت، وكان غسق الليل ينسحب بالتدريج، وغبشة الفجر تحاول أن تجد لها طريقًا إلى الدنيا.. كانتْ البرودة قارصة وقاسية.. ولكن إحساسي كان رهيبًا وبكل شيء.. بدوتُ كإنسان مرة أخرى..إنسان وحيد في دنيا وحيدة.. ما عرضه على الطاغوتي كان شيئًا يفوق كل تصوراتي بل يفوق حدود العقل والخيال.. حتى كلام جرستيني عني لم يعد يعنيني وقتها.. اكتشفتُ إنني حمل في عالم الذئاب، حمل يحاول جاهدًا أن يرتدى أسمال الذئب.. ولكنه يفشل !

إبراهيم الحارون اسمه فقط يحفر داخلي آلمًا بلا حدود.. يجعل حياتي نقطة في بحر متماوج رهيب.. كنا قد اتفقنا أنا وإبراهيم وآخرون على الفرار من مصر.. على أن نغادرها بأي صورة.. فأنا لم أعد أستطيع العيش بها بكل هذا الإحباط والفشل الذي أجده في كل شيء حولي، في وجوه الناس، وفى الطرقات في شعارات الحكومة الرنانة.. كل شيء كان يدعو للإحباط والفشل.

كلمات إبراهيم ما زالت خالدة في ذهني

– الخطة سهلة فؤاد..

– الخطة صعبة إبراهيم.. يجب أن نعمل حساب كل شيء مقدما.

– عبد الباسط ليس بالسهل، ولسنا أول ناس تدخل أوربا بهذه الطريقة.. اسمع كلامي..

– أسمع إبراهيم.. أسمع كل ما تقول.

ليتني ما سمعت كلامك يا حارون وقتذاك.. ليتني.. ليت عمري أعود كما كنت.. ساذجًا فلاحًا، انطوائيًا..أي شيء غير ذلك الحمل في مجتمع الذئاب أي شيء..

في ليبيا استقر بنا المقام في هذا الفندق ننتظر التعليمات.. دائما يا حارون كنتَ تمنيني بالصبر.. الصبر على الأحلام.. قلتَ لي يومًا:

–أحلامك النارية ستقتلك يا فؤاد..

ولكني ضحكتُ آنذاك وأنا أجيبك:

– أليس من حقي الحلم يا حارون.. نحلم هنا.. في مصر لم نجد مكانًا للحلم.. هربنا بأحلامنا قبل أن نحترق بها وبنيرانها.. وطننا طردنا يا حارون.. قتل أيامنا وسحل

أفكارنا وشرد حياتنا.. نحن كنا مشردين في وطننا يا حارون وأنت أعلم مني بهذا..راح طيف الحارون يطاردني في إلحاح، وبرغم برودة الجو القارص الذي كان حولي كنت أشتعل، وأشتعل.. داخلي ملتهب ولأقصى درجة..

أتذكر يا حارون يومها ؟يومها عندما كنتَ تجلس بجواري، عندما ازدادت الدقات الرهيبة على باب غرفة الفندق في ليبيا..أتذكر؟!

كانت الطرقات مكثفة.. قفزتَ أنتَ وقتها وسحبتَ مسدسك الذي ورثته عن أبيك الصعيدي، والذي كنتَ شديد الفخر به وأنتَ تنظفه دائمًا..

أتذكر يا حارون كم كنتَ تحافظ عليه وتسميه ميراث الأجداد؟.كل ما خرجتَ به من مصر هو ذاك المسدس الذي كنتَ تضعه تحت مخدتك وأنتَ نائم، وإصبعك على الزناد دائما كأنك كنتَ تعرف، تتحسسه برفق كأنه رفيق الدرب.. كم كانت الحياة!.

قلتَ لي يوما:

إذا لم نصل فأنني سوف أحتفظ برصاصة واحدة في مسدسي.. طلقة واحدة وأتخلص من هذه الدنيا.. طلقة أصبح كأني لم أكن شيئًا قط..

يا الله!..

أين أنت الآن يا حارون؟!. يهـددني بـك الطـاغوتي، يهددني بحلمك وحلمي..أظنك الآن من الشهداء.. من مات في سبيل حلم مع الشهداء.. حتى لو متَ يا حـارون فـي سبيل حلمي أنا وليس أحلامك أنـتَ..أحلامـي المتأججـة أحرقتك يا حارون.. كنتَ مثل ورقة اشتعلتْ بها النيـران فجأة وهي مغمسة في البنزين.. لم يكن اشـتعالك وقتيّـا.. كنتَ طوال حياتك تنتظر تلك الشرارة التي تحرقك..

أتتذكر يا حارون ؟!

كانت الدقات المفزعة على باب غرفتنا، وأنتَ تثب من مكانك وتقول لي في بساطة:

– لو كانوا قد أتوا ليقبضـوا علينـا سـأنهي حيـاتي وحياتهم..

– أنها طلقة واحدة يا صديقي أنسـيتَ.. طلقـة مـن نصيبك أنتَ..

كنتَ تصرخ بصوت مكتوم:

– لا أريد السجن مرة أخري يا فؤاد.. نسجن ونسـحل من أجل كلمة.. هذا عار.. افتح لهم..افتح .

قطعتُ ترددي وفتحتُ الباب، وجدتها أمامنـــا فجـــأة.. امرأة في بداية الثلاثين، عينان واسعتان وشـــامة صـــغيرة على خدها، وطابع حسن جميل.. جمال لم نره منذ فتـــرة.. ابتسمت المرأة وهي تقول آنذاك:

- أتبغي ليلة يا غريب ؟.

تلجمتُ وقتها، بينما دسستَ أنتَ مسدسك تحت المخـــدة وأنتَ تقول في بساطة:

- ادخلها.. ادخلها..

تأججتْ عيناي في غضب وأنا أصرخ في المرأة وطابع الحسن يناوش عيني:

- ماذا تريدين ؟!

ابتسمتِ المرأة عن صفين من اللؤلؤ، وإبراهيم يقول:

- تريد تحقيق حلم الوحدة العربية.. ادخلها يا رجل..

وقفتُ وسددتُ الباب عليها بيدي وهي تقول:

-إيش بدك يا غريب.. الليلة ســـتكلفك عشـــرين دولارًا فقط.. فكر..

كان الإغراء يفوق الوصف مع كلماتك يا حارون:

- عشرين دولارا في الون شوط ولا في التـو شـوط. إغراء بتحقيق الوحدة مع كلماتك النازفة يا حارون.. الوحدة العربية.. وقولك:

- أتركها تدخل يا رجل؛ حتى نقول للزمن أننا تركنـا ذكرى في بلد شقيق، وحفرنـا اسـمينا بمجهودنـا علـى جدرانها.. ادخلها ولا تقاوم يا رجل..

صرختُ فيك وقتها، وأنا أقفل الباب في وجه المرأة:

- كفى هزلاً.. غوري يا امرأة.. غوري من وجهنـا.. ارتميتَ أنتَ على السرير ضاحكًا وأنتَ تقول:

- حتى حلم الوحدة العربية أثبتَت فشلك فيه يا حمـار.. امرأة كتلك لا تترك يا بني آدم..كنتُ أعرف جيـدًا مـدى عبثك بالكلمات، وأدرك أنه من المستحيل أن تفعل أنتَ شيئًا كهذا، ولكنه الاستفزاز الذي اعتدته منك دومًا..

تضعني على قمة الخطر؛ لترى هل أسـتطيع اجتيـاز الاختبار أم لا.. دائما أنت هكذا يا حارون.. لماذا يا رجـل طوال حياتك تمتحني بالخطر لماذا يا أخـي؟! لمـاذا لـم تتركني أعيش غرًا ساذجًا؟!.. فلاح لا يـري أبعـد مـن قدميه.. لماذا علمتني أن الحياة كنز.. وأن الحياة دون هدف

قمة اليأس والاستهتار.. لماذا علمتني أن تكون لي كلمة؟!.. وأن من حقي أن أصرخ وأقول لا ؟!.

لماذا ؟!

أتذكر رحلتنا لاسطنبول يا حـــارون وســـوق المغطـــي وسوق عثمان بك.. وكيف أن الجميع هناك يطلق علـــيهم مصطفى..هل تتذكر جزيرة البرنسيسات.. أظنك لم تنس يا إبراهيم.. لك حور الجنة يا أخي.. لك حور الجنة..

آآآآآآآآآآآآه..آه يا زمن.. شوارع تفتح على شـــوارع.. وشمس تشرق على استحياء.. وكلمات الطاغوتي:

- أتتذكر إبراهيم الحارون وقتلك له ؟!

أنني لم أنسك يومًا يا حارون.. خمس سنوات هنا ولـــم تغب عن بالي..انتقمتُ لك من نفسي؛ بأن تحولـــتُ إلـــى آلة..آلة بلا أحلام.. قتلتك أحلامـــي يـــا أخـــي.. وقتلـــك استمرارك أن تضعني دائمًا على حافة الخطر.. فشلتُ يـــا حارون..فشلتُ في أصعب اختبار وضعتني فيه.. فشلتُ يا أخي..جاءت الخطة من عبد الباسط سنتحرك ونعبر البحر في زورق خاص، سندخل أوربا عن طريق أنفاق المترو.. الخطة شديدة الصعوبة... عشرة أيام ونحن نسير في أنفاق المترو ليلاً، بعد أن تكف حركته نهائيًا.. ننتظـــر الوقـــت

المناسب ونتحرك.. كنا نختفي نهارًا في غرف الصيانة أو الممرات الجانبية للمترو.. كنا نتحرك بصعوبة قاتلة.. صعوبة من يحملون الحلم فوق أكتافهم.. كنتَ تتحسس مسدسك باستمرار.. رقم التليفون في جيبنا جميعا؛ عندما نجتاز مرحلة معينة نتصل بها.. كثيرًا ما راودنا الخوف ونحن في غرف الصيانة مختفين.. نلمح المترو يمر بسرعته البالغة وتتخشب أقدامنا في الأرض. . أنت فقط من كان يبتسم ويطمئننا بكلماته:

– هانت يا رجال.. هانت صدقوني..

يوم مقتلك يا حارون أتذكره الآن كفيلم سينمائي يبث إلى ذاكرتي مباشرة.. فيلم رهيب..أكان يجب أن يكون موتك هكذا كحياتك نقطة لا تغيب عن الذاكرة؟!..

أكان يجب ؟!

كانت حركة المترو قد انتهت وبدأنا التحرك.. وبدا وقد أكل منا القلق الكثير.. أربعة عشر رجلاً يتحركون بدافع الأحلام.. والوصول، ولكننا لم ننتبه وقتها إلى أن هناك مترو آخر قد أضيف للخدمة، لم يكن موجودًا في الخطة وميعاده الآن.. وبغتة سمعنا قرقعة القضبان التي حفظناها،

وسطعت أضواء المترو على الخط الوحيد في هذا النفــق المظلم.. حاولنا أن نجتاز.. هرب بعضنا إلــى الحــوائط الجانبية وتشبثوا بها.. وسمروا أقدامهم في الأرض... كنتُ أنا وأنتَ متلازمين.. تشبثتُ بك.. كنت ملاذي يا حارون.. المترو قادم بعنف وقــوة.. صــرخاتك أن نحــافظ علــى حياتنا..أخرجتَ مسدسك بطلقته الوحيــدة ودسســتَه فــي جيبي.. لا أعلم لماذا ؟!

هــل كنــتَ تــرى المــوت آتٍ إليــك لا محالــة؟!.. كان الضغط رهيبًا عندما عبر المتــرو بجوارنــا، ونحــن متسمران في الحائط، يدي تقبض على ماســورة ضــخمة ثبتها أنت فيها.. ويدي الأخرى تقبض على جاكتك الجينــز الأزرق.. ولكن بعد وهلة كنتَ أنتَ تصرخ فيّ، تصــرخ والضغط يتزايد بعنف وشدة، ويدي تعتصر الجاكت الجينز، ولكن الضغط راح يسحبك من يدي يسحبك بعنف رهيب.. صرختُ فيك أن تقاوم، ولكن صوت المترو وصوت قرقعة العجلات والضغط الذي يصك أذاننا كان مفزعًا..

فجأة وجدتُ قدميك تطيران في الهواء، ويدي ممسكة بك من الجاكت، وقدميك تتخبط في جــدران المتــرو المــار

بصورة مفزعة، ودمائك تسيل.. كان الألم رهيبًا.. رهيبًا يا حارون..ألم يفوق كل وصف.. وهربتَ بجسدك.. هربتَ؛ ليسحلك المترو كما سحلوك هناك في مصر.. ليسحقك مترو أوربا التي لم تدخلها..

دخلتها جثة يا حارون هربتَ بعيدًا جدًا وتركتني وحدي أواجه المصير وأدق أبواب أوربا أن تفتح ليّ ذراعيها..

عندما أفقتُ من ذهولي كان جاكتك الجينز ما زال بيدي وقد تعطر بدمائك، وكان جسدي وملابسي قد عطرهم دمك..أصبحتُ أحمل دمك على ملابسي وفي روحي.. فشلتُ في اجتياز الاختبار.. ماتتْ أحلامي بموتك يا حارون...

صرختُ في الرجال بعدها قائلا:

- أنا قتلته.. قتلته..

كان بعضهم قد رأى ما حدث؛ لذا كانوا يعرفون الحقيقة.. ولكن بداخلي كنتُ قد قتلتك يا أعز الناس.. قتلتك بفشلي.. قتلتك يا حارون...

يا الله..

ماتتْ أحلامي..

خرجتُ من نفق الموت ومسدسك في جيبـــي، ميــراث الأجداد في جيبي..

ودماؤك في روحي ما زالتْ..

انتبهتُ بغتة!، وأنا أقف أمام شباك المتــرو.. قــدماي أخذت مسارها اليومي.. وابتسامة فرنشيسكا فـــي وجهـــي وهى تناولني تذكرتي المعتادة وهى تقول:

– مرحبا، كيف حالك؟

أجبتها وأنا خارج حدود نفسي:

– الحمد لله.. موجود وما زلت حيًا..

ابتسمت ْ.. ابتسمتُ لها ولمحتُ على وجهها استفســـارًا رهيبًا.. ولكني هززتُ رأسي ومشيت.. وكلمات الطاغوتي تدق رأسي بصفقته الرهيبة...

صفقة بطعم الموت والأحلام

صفقة بطعم الحياة..

صفقة مع الطاغوتي..احذر..

احذرني يا منير..

تسألني كيف أتيت هنا وتساومني..احذرني...

أكنتُ حملاً يرتدى أسمال الذئاب أم ذئبًا يرتدى مُســوح الحملان..

ما زلتَ في داخلي يا حارون..

وما زلتَ نقطة الضوء الوحيدة في أحلامي..

(٨)

لقد ظلتْ عيناي معلقتان في سقف المترو..

لفترة بدت الذكريات تبحر في عقلـي بـلا هـوادة.. ذكريات لا أحملها وتحملني.. ذكريات كثيـرة ومتنـاثرة، شيء يشبه الزمن مـر علـيّ، بـل هـو الـزمن كلـه.. شعرت إنني كنتُ قد جئت مع بداية التاريخ..وقفتُ في وجه الهكسوس والصليبين، حاربتُ بجوار صلاح الدين .

كنتُ أقف كتفًا بكتف بجوار أحمس.

كنتُ أقف علي حدود مصر مع الظاهر بيبرس وقطـز بعد موت شجرة الدر.

كنت مع القاضي الفاضل وعماد الدين.

نعم كنتُ أقف في شارع عماد الدين, المطـاعم علـي الجانبين بكثرة..الأسماء الأجنبية تطغى وتطغى..

كنت ،وكنت ذكريات لا أحملها وتحملني أشياء تغـوص في بحر ذاكرتي بلا نهاية .

أصابع متشابكة وهمسات واجفة, وجنات حمراء يشوبها الخفر.. بنات مصر و النيل.. أشياء لا تمت بصلة لحياتي هنا..بغتة أفقت، لمحتُ الشاب صـاحب الروايـة ينتظـر

المترو..هل أنا هنا في انتظار المترو أم في انتظار لحظات من حياتي..

شريط الذكريات.. الشاب عابس اليوم، والرواية التـــي يحملها تزداد تمزقًا تحت إبطه يحاول أن يبــدوا بمظهــر اللامبالي ولكني أدرك أنه يتخطف نظرات نحوي.هل يبحث في وجهي عن سر الحياة.. دائمًا كنتَ تقولها ليّ يا حارون إن وجهي يحمل أسرارًا و أسرارًا, وإن عينـــيّ تحمـــلان البشر أن يبحروا فيها..هناك ملامح لا تنسى، وملامحي أنا لا تنسى..آه يا حارون!

.. آه يا أخي!

ها نحن معًا نجوب القاهرة ونتخطف من ليلها المشاغب أحاديث الكبار, ها نحن نمر على بيت ياسمين تحدثني عنها وأحكي لك عن سهير، وتحكي لي أن الحب ثمرة الحياة أم أن يولد ناضجًا أو يموت في حياة عثرة متخبطة.. ياسمين كانت الغصن الذي يمد أرضك بالحياة..

عندما تزوجتْ رفضتَ أنتَ أن يكون لك حياة في وطن يرفض أن يعطيك حقك في أن تتزوج من تحـــب وتنجـــب أطفالاً يحصدون ما زرعتَ.. دائما كانت أرضك بكرًا يـــا حارون, لكن عندما اكتشفتَ بغتة أن أرضك البكر ليســـت

بكرًا، وهناك من شقوا بطنها وأخرجوا طفلك ملوثًا مشوهًا للحياة، قررت الخروج. كم كانت حياتك صاخبة ومتحركة..كم كانت آلامك تفوق احتمالنا نحن.. ما زرعته فيّ يا حارون مات ككل البذور التي بذرتها طوال حياتك حتى موتك.. آه يا أخي!

الآن وأنتَ هناك، هل مطلوب مني أن أستعيدك في داخلي أن أشق لنفسي طريقك أنتَ، الطاغوتي يساومني لا يعرف أنه بذلك يخرج الذئب المتوحش داخلي.. يخرجك يا حارون بكل متناقضاتك وصغائرك و أفكارك المتوهجة، يخرجك أنتَ، سوف أعيش بأفكارك لمدة ليست بسيطة.. خروجك اليوم من داخلي لم يكن يسيرًا أو سهلاً، بل كان أشبة بلحظات الميلاد الجديد و الاحتضار.. يموت فؤاد بداخلي الآن، يموت بكل آليته، ويعود في صورتك أنتَ، كم كنتُ أتمنى أن تكون بجواري وهو يعرض صفقته علي..الطاغوتي حوت يا حارون.. حوت ليس له مثيل.. سأحكي لك يا صديقي..

سأحكي لك بالرغم أنك لم تكن معنا عندها، ولكن روحك كانت معي، ودمك كان يجرى بداخلي..

أصر بقية الرجال علي أن تستمر في الخطة فلم يتبق الكثير.. خرجنا من أنفاق المترو للخارج.. الخارج الذي

كدنا أن ننساه .. أتتذكر .رقم التليفون الذي نحـتفظ بـه .. أتتذكر.. قال الرجل لا يجب أن نتصل به ثانيا فـي هـذا الرقم؛ فموتك يا صديقي سبب له مشكلة؛ بعد أن وجدوا رقم التليفون في جيبك، ولكنه قال:

خذوا هذا الرقم الجديد واتصلوا بي..

حاولنا بعدها الاتصال بالرجل عدة مرات، ولكن دائمًـا كان جرس طويل دون رد..الخطة أصبحت قاب قوسين من النجاح أو الفشل كنتُ أريد النجاح لأجلك..لأجلك يا أخي.. ولكن هناك علي الحدود، وفي ليل ثلجي كنا نمشي، ثلاثـة عشر رجلاً يمشون، أتعبهم السـهر، و انتفخـت أعيـنهم، وباتت وجوههم شاحبة..

كنت أشبههم بجنود هتلر علي حدود روسـيا.. ووسـط الجليد، ولكن الذي كان يفزعني هل سنموت بنفس الطريقة متجمدين من البرد، والتعب، والجوع.. سبعة أيام ونحـن نعبر الجبل تبعًا للخطة التي رسمتها أنت يا صديقي..سبعة أيام كنا نتجمد كل ثانية، وزاد ذهولي مرة عندما وضـعت يدي في النار، التي نستدفئ بها لمدة طويلة دون أن أشعر، ولكنني لمحتُ النار وهى تتخلل أصابعي وتعبر وكأنهـا لا وجود لها... قال لي سليمان وقتها:

لا تقلق الماء هنا يغلي عند خمسة درجات مئوية.هــل تتذكر سليمان يا حارون.. ذاك الشاب النحيف تلميذك يــا حارون الذي قلت عنه: عبقرية لا تستحقها مصر..كم كان رائعًا سليمان يا حارون..وكم كنتَ أنت لي..كم كنــتَ يــا أخي.ولكنني كنت أحاول أن أمثل دور القائد..

كنت أحاول أن أستعيد روحك، وأنــا أمنـــي الرجــال بالنجاح، وأنها هانت.. ولكن بداخلي كان يرتجف..يرتجف إلى مالا نهاية رغم أن كلماتك الأخيرة هي التي دفعتنـــي؛ كي أستمر حيًا حتى لحظتها..لكنني لم أكن أنتَ.. والجــو يعاندنا ويضيف إلينا جحيمًا آخر..

جحيم من الثلوج التي لا نهاية لها..

وأخيرا بدت لنا الحدود.

بدت واضحة وظاهرة من هذا المكان، بدت أنها النهاية لرحلتنا.. عبرنا ليلاً.. عبرنا متســللين خــائفين وروحــك تحرسنا..

وبغتة أضيئت السماء فوقنا بكشافات ضــخمة، ولمحنــا أسرابًا من الجنود تقترب نحونا، ودبابتان تقطعان الطريق.. كان الموقف رهيبًا وبصدق.

لم يستطع أحدنا أن يتحرك أو يقاوم

كان يجب أن نستسلم أو نموت.

إذا لم نمت بأيدي الجنود الذين لا نعرف من هم سنموت بردًا وجوعًا..

يومان في استجوابات رهيبة .. اتبعها ثلاثة أيام متوالية في استجوابات أخرى..

وأخيرا فهموا من نحن أو هذا ما ظننا..

وفهمنا أننا في مقر للأمم المتحدة وهذه إحدى وحدات حفظ السلام.

أتي لنا الضابط المصري بالوحدة .

لا أستطيع أن أصف لك هذا الضابط يا حارون.

ليتك كنت معنا لترى وجه مصري هناك وأنك كنتَ على حق ..الضابط جوس الهولندي وآخرون من الضباط بدوا متعاطفين معنا، ولكن المصري بعد أن راجع التقارير عدة مرات كان شديد التشفي، بل شديد في توجيه التهم..

لا فرق هنا وهناك بين هؤلاء الضباط المصريين ..

مستحيل يا حارون أن يكونوا مصريين·مستحيل !

استدعاني إلى مكتبه عدة مرات، ستّ ساعات كاملة وهو يقول لي: أعدْ ما قلته مرة أخرى.

وأنا أعيد وأعيد، وهو يصر إنني تركت مصر لأنضم إلى المجاهدين في سراييفو، وأننا كنا في طريقنا لهناك، وربما إلى البوسنة.

قال لي عدة مرات:

- قل يا ابن...أمتزوج أنتَ ؟

أجبته:-كلاّ.. لم تسمح لي الظروف بالزواج في مصر..

قال ليّ وقتها ساخطًا:

- بل متزوج أكاد أجزم أنك متزوج.. هاه قل كم دفعوا لك يا ابن... بالطبع تركت لزوجتك خمسة آلاف دولار وجئت هنا، وهي هناك تبحث عن رجل آخر يدفئ سريرك الذي تركته فارغًا...

كان يقهقه في استمتاع وهو يرى كم البشاعة والاستنكار، لما يقوله ليّ في ملامحي، وكان هذا يزيد من إصراره أنني قائدهم.. ويكمل في تشف:

- جئت لتنضم إلى المقاتلين.. طبعها نربيكم في مصر وتهربون منها يا أولاد العاهرات..لم أستطع أن أجاريه بالطبع في شتائمه؛ حتى عندما تدخل الضابط الهولندي جوس الذي بدا متسامحًا لأقصى الحدود.. قال له:- لا دخل لك أنت بهؤلاء.. هؤلاء مصريون أولاد كلب.

ولكن لا تقلق يا حارون على ميراث الأجداد، فرغم تفتشيهم لي عدة مرات لم يجدوا مسدسك يا حارون.

لقد كان هناك شك بداخلي أن هناك احتمالاً في الفشل، فأجرت صندوقًا معدنيًا في آخر محطة مترو ووضعته هناك فربّما أعود إليه يومًا.. ربّما.

كان الضابط المصري قد أصبح شاغله الشاغل أننا إرهابيون هاربون من أحكام في مصر، وبرغم الركل والتعذيب والشتائم التي تعرضتُ لها لم أخضع للذل يا حارون، بدأتُ أشعر بنفسي كآلة ... آلة كل ما يدفعها هو دفع الضرب والأذى عن الرجال، خطتك الناجحة فشلتْ يا حارون ويجب أن أحمي الرجال؛ حتى لو بدفع حياتي لهذا.

حاول الضابط المصري أن ينفرد بكل واحد من الرجال، ويسمع منه القصة مرة وراء مرة، ولكن لأن الجميع كان يقول بصدق ما حدث؛ كان هذا يزيد من إصراره:

أنها خطة محفوظة وأنني قائدهم..

هل ترى سليمان الآن يا حارون؟.. يقولون: إن أهل الجنة يتزاورون.. لم أستطع حماية سليمان منه يا حارون لم أستطع.. الأيام تمر ونحن مسجونين هنا، نخضع لابتزازه، يستخدم قانون فرق تسد، ولكن لا فائدة.. دمك

حفر داخلنا إصرارًا بلا حدود، حتى عندما امتنعنا عن الأكل ثلاث أيام بعد موت سليمان؛ حتى يخفف عنا عذابه اليومي واستجواباته التي لا تنتهي، وشتائمه التي حفظناها من كثرة سماعها، لم يطرف له جفن.

تعاطف معنا ضباط المركز الأجانب ولم يتعاطف معنا هذا المصري، الذي شرب من ماء النيل!!

قال لنا وقتها:

- موتوا يا أولاد الزواني، ولكني أشك أنكم ستموتون، المصريون لا يموتون جوعًا..أنتم بقر أصلاً ومجموعة من الحيوانات.

وعندما حاول مرة أخرى معي وفشل قال لي:- سوف تجدهم بانتظارك هناك بمصر يا بطل.. يا ابن...يا ابن...سوف أوصي عليك شخصيًا زملائي هناك يا حبيبي..

لن أحكي لك عن ذل شهرين تحت براثن الضابط المصري يا حارون..

لن أحكي لك كم البشاعة التي استخدمها مع سليمان؛ ليخرج من بطنه الخمسة آلاف دولار، التي كان قد طواهم

في ورق سوليفان وصغر حجمهم؛ ليكون في حجم برشامة صغيرة وبلعها، كاد سليمان يموت يومها يموت على المبلغ؛ الذي كان يتصور أنه سيبدأ به حياته في أوروبا؛ ويمـــوت من الألم الرهيب الذي مزق أمعاءه وهم يستخرجون المبلغ من بطنه..

لن أحكي يا حارون.

جوس الهولندي الضابط ليتك كنتَ تراه... كان يمـــدنا بالطعام والسجائر، والمصري يمنع عنا الطعام والهـــواء.. أتتصور يا أخي؟!..أتتخيل هذا!!

لن أحكي أيضا..

كيف عدنا إلى مصر مذلولين وشبح الفشل يطاردنا..

لكنني كنتُ مصرًا على العودة إلى هنا مرة أخري.

فهنا تركتُ ميراث أجدادك يا حارون ،ويجب أن أعـــود لأجله ولأجل إنسانيتي؛ التي أهدرتْ على أبـــواب مصـــر، وها أنا هنا الآن يا حارون..

عبد الباسط لم يبخل عليّ بالعودة هذه المرة بعد أن شهد رجولتي..ولم أشهد ضده في التحقيقات.. عدتُ إلى هنا ولم

أعد، عدتُ بأحلامك وأحلام سليمان، عدت وقد قررتُ أن لا أعود لمصر مرة أخرى، وأعيش كآلة صماء..

اليوم يريد الطاغوتي ما يريد، كم هي الأهوال يا صديقي!.. كم هي الأهوال!..

لم أدر متى رحت في النوم، وهل حديثي معك كان حلمًا أم حقيقة؟!

ولكني انتبهت على هزة رفيقة وصوت ناعم يقول لي:

- أنت نائم منذ الصباح..

كانت فرنشيسكا بثغرها الوضاح فقلت في ذهول:

- نائم منذ الصباح!.. كم الساعة الآن ؟!

نظرتُ لساعة المترو في ذهول.. كيف نمت كل هذا الوقت؟ وفي هذا الصقيع؟!

قالت فرنشيسكا:

- قمْ وهي معي.. لم أرد أن أفيقك، فقد كنت متعبًا، وهذا وضح على وجهك بشدة.تركتك تنام حتى ينتهي دوامي.. هي معي الآن لنذهب للغذاء.

قمتُ معها وأنا شبه مسحور، مسحور بحـــديثي معــك ومسحور بابتسامتها المسموعة، وإحساس كبير يراودني أن ما زال هناك أمل أن تتحقق أحلامك يا حارون..

(٩)

ها أنا ذا أدخل الشقة محملاً بكل غامضٍ وغريبٍ..

ها أنا ذا استقر على جهاز الكمبيوتر محدقًا فيه إلى مـــا لانهاية.

نفسي هربت مني، أشعر أنني ممسوس، أو أنني أرجـــع إلى هناك بطريقة غريبة..أي هناك تدور داخل نفسي الآن.

العالم كله أصبح بالنسبة ليّ هناك.. هناك فقط..

حيث كل شيء وأي شيء بسعر الجنون..

ها هو الطاغوتي يضع لي سعرًا لم أتخيله قط..

سعرًا ليس بالسهل أو الهين..أعود

أعود إلى نفسي أو لا أعود..

لا مجال للتفكير لدي الآن..

شاشة الكمبيوتر تضيء أمامي لتضيف إلـــى ملامحـــي أشكالا جديدة..

نوع آخر من الظل..

الظل الذي لم يعد يرافقني..

ألف شخص وشخص يتعاركون بداخلي..

ألف سؤال وسؤال.. بلا أدنى إجابة..

عقلي أصبح في حجم اتساع العالم..

فرنشيسكا.. هونت علي قليلاً..

حكت لي الكثير والكثير وهي تضحك..

ضحكتها آنستني وأنستني..

حكت ليّ عن كل متاعبها وأفكارها للمستقبل..

دائمًا حالمة ورقيقة وتقطرين عذوبة يا صديقتي..

كان ودي أن أحكي لك أنا أيضا.. ولكنني لم أستطع..

الكلماتُ هربتْ وولتْ تاركة لي فراغًا وخرابًا رهيبًا داخل نفسي..

أصبحت أسمع رنينًا داخليًا..

كأني صرت تمثالاً أجوفًا يدق عليه المارة؛ ليسمعوا رنينه..

شيء داخلي يموت..

وشيء آخر ينمو.

أشياء تحفر طريقها إلي، وأنـــا مســـتمر فـــي الـــذهول والتخبط..والتحديق في الشاشة أمامي..

لأفعل أي شيء..

فتحت "الماسنجر" تركت الحالـــة علـــى لظهـــور دون اتصـال..

لا أحتاج أن أكلم أحدًا الآن..

أحتاج أن أتكلم مع نفسي طويلا..

أحتاج أن أحدث الحارون كثيرًا..

ليتك هنا يا صديقي..أحتاج إليك كثيرًا..

أحتاج لحظات حقيقية مع الأمان.. ذاك الشـــعور الـــذي ولى وهرب، وتركني أحارب طواحين نفسي وعقلي..

أحتاج ألا أشعر أنني محاصـــر بالكامـــل بشـــبكة مـــن العلاقات المتوترة والغامضة..

أشياء كثيرة تتساقط حولي..أشياء كنت أعتبرهـــا مـــن ثوابت حياتي تسقط..

وجدت نفسي أدخل إلى "الماسنجر" الآخر وافتح البريـــد الالكتروني السري..

رسالة آخري قفزت في وجهي، رسالة من الطاغوتي..

كلمة واحدة "ننتظرك "..

لم يزد استغرابي..لن أتعجب بعد اليوم لأي جديد يخص منير الطاغوتي..

فصفقته التي عرضها علي ما زالت داخل رأسي تأخذ آلاف الأشكال.. بل هما صفقتان..

الغموض الذي بدا عصيًا، بدأ ينفك ويفضح عن نفسه..

التماثيل تتساقط..

رسالة أخرى تقذف في وجهي..كلمتان فقط " ننتظرك لا تتأخر علينا "

إمضاء سلوى..

ياه لهذا الزمن الذي يريد أن يفرض قوانينه عليّ..

ليكن يا منير.. ليكن يا سلوى.. ليكن يا رأفت

ليكن ..أتتصوران أنفسكم أبطال رواية بوليسية ؟!.. سألعب اللعبة بقوانينكم..أوراق الضغط ستكون في صالحي.

موت الحارون ووصولي هنا وإقامتي المتعثرة.. أوراق الضغط التي تضغطون بها عليّ؛ وتهددوني بها، لم يعد لها أي أهمية؛ لأنني سوف أقبل الصفقة..سأقبل صفقتك يا منير..إبراهيم الحارون سيقبل صفقتك.. ما زلت ممسوسًا..

سأقبل.

عدتُ مرة أخرى" للماسنجر" العادي للجميع.. وفتحته على الوضع متصلا..

لم أنتظر طويلاً حتى جاءني رنين أعرفه، وكلمات تتراقص في المحادثة أمامي، أنه رأفت !!

اتسعت ابتسامتي بغتة.. ابتسامة غريبة ذئبيه.. لك حق يا جرستيني..ابتسامة ذئب دون سبب.. وراحت كلمات رأفت تتراقص أمامي:- ها ؟.. هل فكرت ؟!.

أجبته في سرعة:- أهلا صانع المصائب..

انطلقت الصور التعبيرية لتغرق الشاشة أشكالا كثيرة ضاحكة..ثم كتب:

- ليكن..اعتبرني كذلك.. ولكن هل فكرت أم لا ؟.

كتبت في لامبالاة :

وموافق. فكرت.. وموافق .

ارتسم شكل آخر أمامي على الشاشة وجه تعبيري متعجبا، ثم قال رأفت:

- أبهذه السرعة.. لم أتخيل هذا ؟.

أجبته في بساطة:

- لك أن تتخيل الكثير بعد اليوم.

ثم كتب هو بمنطق الاستفزاز:

- ستسافر متى ؟.ها؟.

كتبت في هدوء:

- عندما يأتي المساء..

صورة تعبيرية أخرى مع كلمات:

- أنت أحمق، دائمًا تمزح..قل جديًا هل بالفعل قبلت المشروع؟

ومتى ستسافر ؟.

أجبته بصورة تعبيرية وأنا أقول:

- أنت غبي.. لا تنس أننا سنسافر سويًا، وأنك أول شخص سوف يعرف آنذاك.

صورة تعبيرية فرحة تتراقص في وجهي مع كلماته:- إذن صفحت، وسنعود أصدقاء..

صورة تعبيرية أخرى من ناحيتي مع كلماتي:- بالطبع كلاّ.. لن نعود أبدا أصدقاء..أنا لا أصفح يا صاح.. ولكنه عمل وصفقة لا ترفض.. مجبر أخاك لا بطل..

كلمات عمل. تتراقص ثم كلمات واضحة:

- ليكن.. العمل عمل.. ولكن يجب إلا تتأخر علينا..

- لن أتأخر طويلاً.. صفقة بمليوني دولار لا تـرفض بأي حال.

- سلوى سوف تنتظرك في لبنان.. هل تشتاق إليها.

- لا دخل لك بسلوى أو اشتياقي إليها، كن نفسك فقـط، واهتم بأمورك الشخصية.

- أصبحتَ قويًا فجأة يا صديقي.

- أنتم من أخرجني مرة أخرى للعالم يا صاحبي.

- أخرجناك؟" مع صورة تعبيرية عن الدهشة تتراقص "

- بالطبع لقد كنت أعيش بذكرياتي فقط، الآن أنا مجبر أن أعيش بذكرياتكم أنتم.

- أسلوبك غريب اليوم. هل هناك شيء ؟!

- رأفت لا دخل لك بأسلوبي.. ولكن لاشيء حقيقـي.. مجرد سهر طويل دون نوم..

كأنني عشت حياتي كلها ساهرًا.

- فؤاد أشعر أننـي أتكلـم مـع شـخص أخـر غيـرك
- لا تهـتم أشـياء كثيـرة تحـدث حولـك فـلا تهـتم.

– أشعر أننا برغم ما بيننا من خلاف ولكن لغتك فيهـــا ود وهذا غريب ؟!. ماذا تخفى يا صـــديقي ؟ مـــاذا تخفـــي ؟ صورة تعبيرية ضاحكة وأصابعي تنقر الكيبورد:

– قلت لك لا تهتم .

– إذن سأتركك لتنام وسوف أبلغ الطـــاغوتي بموافقتـــك، سيصر كثيرًا برغم أنه سيندهش لسرعة موافقتك، وربّمـــا زادت شكوكه.

– لا تخبره الآن شيئًا..انتظر حتى أضـــبط أمـــوري فـــي المصنع، وهنا.. وأنا من سوف يخبره.

– إذن سلام مؤقت حتى نلتقي..

أغلقت الماسينجر وأنا أتمتم لنفسي:

– حقًا حتى نلتقي يا صاح..

وانطلقت ضحكات غريبة من بين شفتي.. ضـــحكات لا أدرى من أين تنبعث، ولكنها

تلتهب بداخلي وإلى ما لا نهاية..

فجأة وجدتُ نفسي أحدق في الشاشة والدموع تترقـــرق في عينيّ، وصوت ضحكتي يكتم شيئًا فشيئًا وأنا أقول في حزن لا أعلم أينبع من داخل نفسي، أم أنه حزن يحفر لـــه

طريقًا في حياتي الآن.. وصوتي يأتي هامسًا لي: ليتك هنا يا حارون.. ليتك هنا.تركت جهاز الكمبيوتر، وتركت عالم الشبكة العنكبوتية الغريب، الذي بدأت أتعود عليه للأسف؛ حتى أستطيع أن أضيع الكثير من وقتي الضائع في الأساس..

كان يومي غريبًا ومضغوطًا..

كم هائل من اللامعقول يحدث ليّ..

كم هائل من الأسئلة والأجوبة التي لا تنتهي..

كنت أحتاج للنوم، وفي ذات الوقت النوم يهرب متلذذًا بإحساسه أنه بعيد عني بكثير..

درت في حجرتي عدة مرات، ارتميتُ على السرير عدة مرات..

ذهبت للمطبخ للعديد من المرات.. شيء بداخلي ينقصني..

عالم آخر ينمو باستطراد ملح داخل عالمي المغلق والمنكمش على نفسه..

عالم من الأسرار والأحجية التي تظهر وتختفي فجأة..

نقط من نور تفرش طريقها داخل نفسي ثم تظلم..

أشياء وأشياء..

سلوى ؟!.

هذا كثير عليّ!

لم أكن أتصور هذا أو أتوقعه..

لم أكن أتصور الكثير، ولكن الحقيقة دومًا مفزعة، وتدعو للخبل المطلق والمطبق..

هل سأجن بقبولي صفقة الطاغوتي، أم أنني أقدم خدمة لسلوى وإخوانها هناك في لبنان وفلسطين..

أحلام كثيرة متمردة تبغي الظهور والتفرد، أحلام ماض وحاضر لا أريده وهو يريدني.

كان يجب أن أستسلم للنوم، للموت..

لأي شيء المهم أن أستسلم الآن ولو مؤقتًا..

شعورك أنك تستسلم لشيء يدفعك لكي تهدأ.

هناك ما يحدث، وهناك من يفرض أسلوب اللعبة..

وهناك ملك..

وكش ملك

ولكن من الذي سينسحب، هل أنسحب أنا؟..

أم أن الدور سيأتي عليّ لأقول لك يا طاغوتي..

كش ملك..

مات.

فتحت دولابي فتشته عدة مرات بغرض ألا أجده.. يدي كانت تتعثر به، ثم أقنع نفسي أنه شيء آخر.. ولكن بعد فترة اصطدمت يدي به للمرة الأخيرة، قبل أن أخرجه وأتطلع إليه، سحبته من جرابه.. وتطلعت إليه طويلاً..

ها هو يا حارون ميراث أجدادك.. ها هو مسدسك الذي استعدته من تلك الخزانة المعدنية في محطة المترو بعد رجوعي إلى هنا، هاهو الآن أمامي أتطلع إليه بشغف.. ومنير يظهر أمامي بهيئته المستفزة..

هاهو ميراث الأجداد سيجد له طريقًا للحياة..

ولكن هل سأجد أنا طريقي في الحياة؟؟ ..

لم أعلم ولن أعلم الآن شيئًا !!..

يجب أن أحتفظ بميراث أجدادك يا حارون تحت وسادتي من الآن..

يجب أن يظهر كصديق لي.. صديق في عالم الذئاب..

صديق في عالم الطاغوتي..

ارتميت على السرير، دفعت المسدس بيـدي؛ ليسـتقر أسفل الوسادة، وأنا أربت عليه كأنني أربت علـى صـديق قديم أوحشتني رؤيته..

يا الله !

يا إلهي !

أرحمني..

أرحمني من الأحلام..

(١٠)

لم أكن أدري كم من الأيام مضت منذ أن أخبرت الطاغوتي بموافقتي..

لم أعد أحسب الأيام، بل أصبحت كل أيامي متشابهة الآن..

مدة ليست بقصيرة ظللت أتردد على الفيلا..

أصبح وجودي شيئًا واضحًا ولا يعترض عليه أحد، لقد أصبحت وصرتُ فجأة رجلاً من رجال الطاغوتي المخلصين.. أشياء كهذه تحدث دون مبرر..

جرمين حاولت أن تتقرب لي مرة أخرى، ولكنني تعلمت الدرس، مثلها يجب أن يظل بعيدًا عني.. بعيدًا بدرجة كافية؛ حتى أستطيع أن أحيا كما أريد..

أغضبها الأمر في البداية، ولكنها استسلمت بعد فترة لأوامر الطاغوتي، بأن تكف عن مضايقتي.. كنتُ بالنسبة له صفقة.. صفقة يستعد لها منذ مدة..

كانت علاقتي الآن بالطاغوتي علاقة غريبة بعض الشيء، هو يرى، وأنا أرى.. ولكننا متفقين رغم هوة

الاختلاف بيننا..هو يرى الصفقة مال وصفقة، وأنا أراهـا عودة..

عودة للحارون وأحلامه.. عودة لي أنا الذي فقدتُ نفسي بنفسي..

بعد أسبوعين فاجأني الطاغوتي بالإقامة.. تلك الإقامـة التي تمنيتها لسنوات طويلة؛ وفعلت كل شيء كي أحصـل عليها دون جدوى.

أسبوعان مع الطاغوتي فقـط، وانتهـت الإجـراءات، وأصبحتُ أملك إقامة شرعية.

غريب هذا الوطن.

غريب هذا الزمن.

أحلامكَ التي تهرب منك لسنوات تأتيـكَ الآن بمنتهـي البساطة دون تعب أو مشقة.

وأنتَ الذي دارت بكل الأحلام والمشاوير والناس لتصل لحلمك دون فائدة.

هاأنذا أقطع حديقة الفيلا في خطوات متئدة، أتطلع لكـل ما حولي بهدوء، عقلي ما زال يعمـل للأسـف..مسـدس الحارون معلق تحت إبطي فـي جرابـه.. لـم يعتـرض

الطاغوتي لحملي له، ولكنه استعجب كيف لمثلي أن يملك مسدسًا كهذا..

حاول أن يشتريه مني قال: إنه تحفة بكل المقاييس ولم يعد يصنع مثله.

قلت له: إنه ليس للبيع.

صعب أن أبيع ميراث أجدادك يا حارون، صعب!.

كان بي شيء غريب لا أفهمه، شيء يخص الحارون فقط.

اقتربت من أحدى الأشجار الكثيرة المتناثرة في الفيلا..الحديقة نفسها تحفة..أشجار استوائية، وإفريقية وأوربية.. عالم واسع من علم النبات هنا.

هواية أخرى من هوايات الطاغوتي التي لا تنتهي والتي كنتُ أنا جزءًا منها.

بغتة جفلتُ لملمس يد تربت على كتفي، أدرتُ وجهي رأيت رأفت الذي أصبح فجأة من رجال الطاغوتي أو هو منهم منذ البداية يقف مبتسمًا في رضا.

قال في هدوئه المستفز:

- هل أفزعتك ؟!

قلت بهدوء:

- لا شيء يفزعني الآن يا صاح

قال في بساطة وهو يكشر عن ضحكة غبية:

- لماذا تناديني يا صاح منذ فترة.

ضحكت وأنا أقول:

- لأنك الآن صاح يا صاح.

قال في غموض:

- لا يهم.. هل علمت أننا سنسافر غدا ؟.

قلتُ من وسط ابتسامة مفتعلة:

- علمتُ يا صاح.

قال وهو يحاول أن يرسم الغضب على ملامحه:

- ألن تكف عن هذه اللعبة.

قلت له في استفزاز:

- أي لعبة تقصد، لعبتي أم لعبتكم أنتم ؟

بلع ريقه وهو يتمتم:

- اسمعني جيدًا يا صديقي أننا هنا لعمل، هل فهمت؟! والعمل يدعونا دائمًا أن نكون أكثر حرصًا في التعامل يا صاح ؟.أليس كذلك ؟!

ارتفعت ضحكتي بغتة وأنا أقول:

- ما الذي تريده بالضبط يا رأفت ؟!

قطع أحدى أوراق الشجر بيده في عصبية وهو يقول:

- إنك لا تعامل الأمر بجدية كافية، وهذا كفيل بفشل كل شيء.

أجبته في هدوء، وأنا أتناول منه ورقة الشجر وأتطلـــع إليها:

- بل أتعامل بمنتهي الجدية، هل ترى هذه الورقة.. لقد قُطعت عن فرعها..أتستطيع أنت أن تعيدها مـــرة أخـــرى لفرعها؟!

نظر لي غير فاهم وهو يقول:

- ما الذي تقصده بالضبط ؟!

أجبته في هدوء وبساطة:

- أنا هكذا الآن، ورقة فصلت عن شجرة الحياة، ولـــذا من الصعب إرجاعها كما كانت..الفضل لك يـــا صـــديقي القديم.. الفضل لك يا صاح..

وانطلقت ضحكاتي مجلجلة مرتفعة، وأنا أتباعد عنـــه، وأتطلع للورقة في يدي في شيء من التردد المشوب بالقلق.

ولكنني ضبطت نفسي أتمتم:

- لا يهم.. لا شيء الآن يهم..

بالفعل لا شيء يهم الآن، يكفيني ما أنا بـــه.. يكفينـــي شعوري بالقلق، والخوف، والترقب..

بل تكفيني الأحلام التي لم أطمع يوما فـــي الوصـــول إليها..

بعد عدة أمتار وجدت الطاغوتي الذي كان يتابعنا مـــن بعيد أمامي يبتسم تلك الابتسامة اللزجة المريبة.

قال في صوت ضاحك:- من الجليّ أنك اعتـــدت جـــو الفيلا، واعتدت أن تسير في حديقتها بمفردك، ألا تخاف؟! .

أجبته وأنا أقترب منه:

- لن أزعم أنني لا أخاف، ولكنني أعتـــدت الخـــوف؛ فأصبح كأنه لا وجود له، مات الخوف بداخلي منذ دخلـــت فيلتك العظيمة.

ارتفعت ضحكاته أكثر وأكثر وهو يقول:

- ألا تريد أن تراجع خطوات الصفقة مرة أخري؟ .

قلت في بساطة:

- كلاّ، أنني حفظت كل شيء سيد منير حفظته كاسمي.

ابتسم وهو يقول:

- هيا معي، سوف أشرح لك الأمر مرة أخرى.. للتأكيد فقط.

سرنا سويا متجاورين، كأننا أصدقاء طفولة، بل كأن ما يربطنا سويًا ليس سوى خطة رهيبة لعقل شيطاني رهيب.

تطلع الرجال لنا ونحن ندخل الفـيلا فـي شـيء مـن الفضول، ولكنهم رجعوا يتابعون عملهـم كـأن لا شـيء يحدث.

استقر بنا الجلـوس فـي الردهـة الرهيبـة بلوحاتهـا وتصميماتها الفريدة.

قال وهو يجلس في مقعده المفضل في صدر الردهة:- ألاّ تبغي شيئا يدفئك؟. هناك صنف جديد من الخمور أتـى إلي اليوم.. صنف لم تذوقه من قبل.

ضحكت وأنا أقول:

- ولا من بعد سيد منير..أنني لا أشرب..

قال بابتسامة عجيبة:

- متدين أنت ؟.

ضحكت وأنا أقول:

– لا أعتقد أنني هنا لكي أتناقش معك في فتاوى دينية.أليس كذلك ؟!.

ما زالتْ ابتسامته اللزجة على شفتيه وهو يقول

:– ليكن.. اسمع يا صديقي، أتسمح لي أن أقول لك يا صديقي ؟.

قلت بلا مبالاة:

– قل ما تريد، كلي آذان مصغية.

هزّ رأسه ومصمص شفتيه، وهو يضع كأسًا من الخمر جانبًا، ثم قال:

– ممتاز حقًا هذا النوع، مثلك أيضا فؤاد.. أنت أيضًا نوع ممتاز من البشر أحب التعامل معه، والآن سأعيد ما قلته لك آنفًا.. الصفقة كما تعلم ليست مجرد رسالة أسلحة وإلاّ أدخلتها بنفسي، ولكن الأشخاص الذين يرغبون في الصفقة يرغبون أن تكون أنت الوسيط، لا أعلم كيف وصلت شهرتك إليهم، رغم أن لا شهرة لك.. ولكن وسيطتهم إلينا سلوى وأظن أنها صديقة قديمة لك؛ ولهذا وقع اختياري عليك، في أول الأمر درست عنك كل شيء، بل حاولت استفزازك برقصي مع جرمين في الحفلة.. هل

تتذكر؟... كنتُ أقصد آنذاك كل فعل أتيت به، كان يجب أن أعرف ردود أفعالك جيدًا، لا أريد شخصًا متبلد المشـــاعر لهذه الصفقة.. أريد رجلاً متفهمًا لطبيعة المهمة وخطورتها، وفي ذات الوقت يؤمن بقضية كبرى.. جرمين في الحقيقـــة لا تهمني كثيرًا..ولكن كان يجب أن يكون هنـــاك علاقـــة بيننا؛ حتى لو كانت علاقة متنافرة غامضة.. الحقيقة أيضًا هي لا تستحقك.

اتسعتْ ابتسامته أكثر وهو يرفع كأس الخمر إلى شفتيه، ويرتشف منه قطرات وهو يشير لي:

- ألم تغير رأيك؟.. إنه نوع فاخر.

قلت في هدوء:

- كلاّ، أكمل سيد منير..أنا معك.

داعب شفته السفلى بيده، وقال:

- أحم، بالطبع كل ما حدث لك لم يكن مقصود به أنت أو الإساءة إليك كشخص.. ولكنها طبيعة الحياة، لذا ستسافر غدًا أنت ورأفت. .

هززت رأسي وأنا أتمتم:

- لقد أخبرني.

هزّ رأسه عن رضا وهو يقول:

– ولكن نصيحتي لك لا تثق به كثيرا أنه ثعلب مراوغ.

قلت في ذهول:

– لا أثق به، وأنت من رشحه معي للسفر..كيف هذا ؟!

ابتسم نفس ابتسامته المريبة وهو يقول:

– لن أستطيع أن أحكي لك كل شيء باستفاضة، ولكنها لعبة كما قلت لك.. أحيانا نلعب الألعاب التي لا نحبها، ولكننا نظل نلعبها مضطرين، عموما سوف أحفظ لك الأمان كاملاً، وسيكون معكما أحد رجالي المخلصين هناك، وسيحافظ عليك بدمه لو لزم الأمر.. فأنني بدأت أميل لصداقتك..

هززت رأسي وأنا أقول:

– ليكن.

قال في رضا تام:

– سوف تصلون غدًا، هناك غرفة باسمك في أشهر فنادق لبنان، أنت سائح غني ترغب في الاستمتاع والراحة.. لبنان حاليًا تمر بفترة هدوء لا بأس بها.. رأفت سوف يكون في فندق آخر.. نقطة الالتقاء كما اتفقنا

ودرستها أنت ستكون في بنت جبيل.. الرجال سيقطعون مسافة طويلة من الجابية في سوريا، حتى يصلوا إليك في بنت جبيل هناك ستجد رجالي ينتظرونك بسيارة مغطاة كبيرة، وبها رجلي الذي قلت لك عليه.. سوف تتسلم منهم السيارة، وتقودها أنت وليس شخصًا غيرك إلى نقطة الالتقاء الأخرى التي ستعرفها وقتها.. هناك ستجد سلوى بانتظارك ومعها نوع آخر من التعليمات تنفذ بحذافيرها، لا مجال للخطأ هنا،الخطة البديلة في حالة فشلك، هي تدمير العربة كلها، والهرب، وإذا فشلت للأسف في هذا، سوف يقوم رجلي بحمايتك بدمه كما قلت، ولكن لو وقعت في يد الإسرائيليين، سيضطر لقتلك وقتل رأفت دون هوادة.. هل فهمت؟!.

قلت في هدوء قدر إمكاني:

– سيد منير هل لي بسؤال ؟.

رفع كأس الخمر إلى شفتيه وهو يشير لي بيده أن أقول ما أريد، فأردفتُ قائلا:

– من أنت ؟!

ارتفعتْ ضحكاته بشدة، واهتز الكأس بين يديه، فوضعه على طاولة أمامه، وتناول منشفة يمسح بها الخمر الذي لوث ثيابه.. ثم هزّ رأسه وقال:

- إنني تاجر، تاجر مزعج تعود إلا يخسر صفقاته أبدا مهما كانت وأيًا كانت، لذا معي ستربح، ستربح كثيرا جدًا..

وانطلقتْ ضحكاته إلي أقصى حد وهو يقول:

- اذهب لترتاح الآن.. وغدًا سوف يتضح لك الكثيـــر، الكثير جدًا.

تركته مع كؤوس الخمر، وانصرفت من أمامه، وعقلي ما زال مشغولاً بالجزء الذي لا أعرفه مـــن الصـــفة، ذاك الجزء الذي سوف تمنحني إياه سلوى..

كم كانت حيرتي شديدة عندما علمت علاقتها بـــالأمر، ولكنني استطعتُ أن أبعد ذهولي جانبًا، وأن أفكر ما دمـــت رضيت بهذه الصفقة فسوف أكملها للنهاية ومهما حدث.

سلوى قد أوحشتني..

ربما كان هذا أحد أسباب قبولي لتلك الصفقة..

وربما الإقامة والمبلغ الوهمي الذي لو قضيت عمـــري كله هنا أعمل ليل نهار لن أجمع نصفه.

وربما الحارون الذي يطاردني الآن أينما كنت، وحيثما سرت.

ربّما وربّما..

آلاف الأسئلة التي تنمو بداخلي دون إجابة.

هناك في لبنان سوف تكون الإجابة

سوف تكون.

هناك في لبنان

ستكون سلوى .

سوف تكون.

هناك في لبنان تعود يا حارون.

سوف تكون هناك.

بداخلي هناك.

كل أحلامك هناك.

كل أفكارك هناك.

هناك ما زالتْ تنتظرني تلك الأحلام.

ولكنها هذه المرة مشتعلة بحق.

إنها كتلة رهيبة من الأحلام..

(١١)

غادرت أوروبا من مطار دفنشي الدولي.. تركتُ خلفي أشياء كثيرة لم تحل، ولكنني كنتُ أثق أنني سـوف أعـود مرة أخرى.. ها هي ذي المدن تجري في عقلي ميلانـو، روما، نابولي، جنوة، باليرمو، كاتانيا، بـاري، بيرغـامو، تورنتو، بريشا ، بولونيا ، بيروجا ، ساليرنو وكالياري .... ها هي المدن التي حفظتها وحفظت دروبها تهرب منك، ها أنت تغادر أوربا التي كان وصولك إليها أحـد أحلامـك، ولكن هل ستعود؟!..

هل ستعود ؟.

سؤال لن تجد إجابته الآن قط.

المدن التي رفضتني كثيرًا، والتي تركتني أهرب بنفسي وأتحول إلى آلة جيدة الصنع، آلة أوربية، تهرب وتهـرب من أمامي..

ها هو رأفت يستقل نفس الطائرة يحلـم بنصـيبه مـن الصفقة، نتف السحاب تهرب هي الأخرى أسفلنا.. أوربـا كلها تودعني الآن.

هكذا الإحساس بداخلي ينطق، وينطق.

كان أفضل ما أفعله أن أستسلم للنوم الآن.. فالمشوار ما زال في بدايته وما زال طويلا جدًا.

سيكون هناك ترانزيت في تركيا، سيهبط هناك رأفــت، ويتركني أكمل أنا الرحلة إلى لبنان.. جزء جديد من الخطة لم أعلمه إلا قبل صعود الطائرة بلحظــات أشــياء كثيــرة تضاف أيضًا وتحذف..

كأنني بطل لإحدى القصص البوليسية.. جــو غريــب يفرض نفسه بشدة وعنف .

لا أعلم متى نمت، ولكنني استيقظت على يد المضــيفة الشقراء وهي تهمس:

- ساخن أم بارد.

هززت رأسي وأنا أتطلع من شباك الطائرة إلي الخارج وقلت:- ساخن.

من الواضح أنني لابد أن أكون متيقظًا طوال الوقت..

هزّ جاري في المقعد رأسه وهو يحــاول أن يجــاذبني أطراف الحديث:

- رحلة عمل ؟!

أومأت له برأسي وحاولت أن أتظاهر بالنوم، لا أحتـــاج أن أحدث أي شخص الآن ولم يكن باســتطاعتي، يكفينـــي الحديث الدائر داخل عقلي بلا هوادة .

هبطت الطائرة في تركيا ..

كان هناك ساعتان قبل أن تقلع مرة أخرى..

فضلتُ الانتظار في استراحة المطار..

شاهدت رأفت وهو ينهي إجراءات الدخول لتركيا..

ابتسم ليّ من بعيد وكأنه يقول لي:

- سنلتقي يا صاح.

أجبته بابتسامة أخرى كأني أقول:

- سنرى يا صاح.

مرت الساعتان وعدت للطائرة وأنا أحاول أن أكون أهدأ أعصابًا.

حاولت أن أمارس هوايتي للتحول مــرة أخــرى لآلــة ولكني فشلت.

ها هي لبنان تقترب، وعليّ أن أكون مستعدًا.

بيروت المدينة التي قاست الكثير والكثير تستقبلني فاتحة ذراعيها..

المدينة التي مزقتها الحروب الأهلية وهاجمها الإسرائيليون كثيرًا تحضنني أنا القادم بأسراري..أحس بدفء غريب وأنا أتطلع إلى شوارعها المضيئة في هذه الساعة من الليل.. كم قاسيت يا مدينة..

كم قاسيت يا بيروت.

ها هي المدينة تستقبلك يا حارون مثلي، أحس بك بداخلي يا صديقي.. ما زلت ممسوسًا بك مهما حاولت التظاهر بالعكس.

مكثت في الفندق.. كنتُ أريد أن أجوب بيروت كلها ضاحية، ضاحية أن أقول:إنني أتيت يا بيروت، أتيت يا سلوى. ولكن كان عليّ الانتظار..لا أعلم كم سوف أنتظر؟!

ولكن يجب أن أنتظر ذاك التليفون منها، من سلوى..

كل شيء كان يمضى بطريقة آلية وفاترة، صعب أن تعمل أي شيء وأنت تحس أن ما تقوم به جزء من خطة وضعت لك، ولا دخل لك بأحداثها..

لذا قررت أن أظل في الفندق هذه الليلة وفي الصباح سوف أحاول أن أستمتع بعض الشيء بلبنان أو أرى سلوى.. كم ينتفض قلبي بداخلي لمجرد ذكر اسمها.

يا الله !

كم هو جميل الحب !

وكم هي قاسية الحياة !

آلاف كم مبعثرة بلا نهاية داخل قلبي وعقلي..

فجأة قطع رنين الهاتف المحمول تأملاتي، الذي طلب مني الطاغوتي تشغيله بمجرد أن أضع قدمي في بيروت، رنين متواصل جعلني أفكر ألف مرة قبل أن أرد، ولكنني في النهاية وجدت نفسي أرد:

– آلو..

جاءني صوتها عذبا:

– حمدًا لله على سلامتك.

كاد قلبي أن يتوقف والهاتف يرتعش بيدي وأنا أجيب: سلوى.

جاءت ضحكتها صافية وهى تقول:

– وهل كنت تنتظر شخصًا آخر؟! .

عقدت الدهشة لساني وهي تقول:

– أردت فقط أن أرحب بوصولك هنا.

وجدت نفسي أهتف:

– يااااااااااه كم كانت قاسية تلك الرحلة.

قالت بهدوء:

- تعبت ؟!

أجبتها وقلبي يواصل رقصه المتواصل:

- جدًا يا حبيبتي.. جدًا.

ضحكت وقالت:

- أنت طفل كالعادة.

قلت بسرعة:

- أريد أن أراكِ..

جاءتني ضحكتها جميلة رائقة وهى تقول:

- طفل!. ستظل طفلاً مهما حدث.. المهم ليس اليـــوم.. اسمعني جيدًا..

قلت في لهفة: أسمعك يا حبيبتي.

جاءت كلماتها كنشرة أخبار فجأة وهى تقول:

- اليوم ترتاح غدًا تطلب خريطة من الفنـــدق لأشـــهر الأماكن في لبنان.. ستطلب سائقًا خاصًا من شركة سوس تلا.. سيأخذك السائق إلى جونيه وهناك ستظل تتفرج على المعالم السياحية، كازينو لبنان، تلفريك لبنان، سيدة لبنـــان،

حريصا، مغارة جعيتا.. في مغارة جعيتا سيقابلك أحد رجالنا ومن هناك سوف تأخذ تعليمات جديدة..

قلت في ذهول:

- ما كل هذا ؟!هل نحن في فيلم أجنبي؟!

قالت وهي تضحك:

- هكذا أنتَ يا طفلي.. الحياة أكبر من تصوراتك..إلى الغد يا طفلي.

صرخت في الهاتف:

- كلاّ انتظري..

ولكنى سمعتُ الفراغ، وسمعتُ صوتي فقط يتردد في مسامعي .. يا الله !

بالرغم أنني كنت أعلم أن هناك صفقة رهيبة تدور، وأنني أحد المشاركين بها.. ولكنني كنت ما أزال طفلاً كما قالت سلوى، مندهشاً دومًا، غير متخيل ما يحدث!.

ولكن كان قلبي ما زال يرقص برغم هذا، أخيرًا يا سلوى.. أخيرًا سنلتقي..

وجدت نفسي أخلع ملابسي وأنا أتطلع للبحر من أعلى، من غرفتي كان المنظر رائقًا وجذابًا، مما أعطاني إحساسًا

بالهدوء برغم كل ما يحدث مـن جنـون.. لقـد أحسـن الطاغوتي اختيار الفندق، فهو يطل علي البحر في الروشة وموقعه ممتاز فعلا.. هل سأكون ممتنًا لك يا طاغوتي؟! .

وجدت نفسي بعد فترة ارتمي على السـرير، وأحـلام لقائي بسلوى تداعب عقلي بلا هوادة.. لم أعلم كيف نمت؟!

كان الصباح رائقًا على غير العادة، حتى نـومي كـان هادئًا لم تتخلله أي من الأحلام المزعجة، ولكننـي نمـت بعمق ودون الحاجة لكوب ماء بجواري لأول مرة منذ مدة طويلة، نمت كأنني كنتُ في رحلة طويلة طوال عمري من أجل لحظات كتلك، لحظات من النوم دون كوابيس.لاحـتْ ابتسامة على شفتي وأنا أرتدي ملابسي أمام المرآة في تأنق واضح..تأكدت أنني ما زلت أحتفظ بجزء حي من الوسامة.

كان يراودني شعور بنصر زائف، يكفيني أنني سـوف أقابل سلوى اليوم ألم تقل: إلى الغد يا طفلي.

يكفيني سماع صوتها الذي أيقظ في أحاسيسًا كنـت قـد ظننت أنني نسيتها منذ زمن.

اتصلت بشركة سوس تلا وقمت بحجز وتأجير سـيارة خاصة بسائقها كما طلبت هي.

نزلت إلى استقبال الفندق، استعرتُ منهم خريطة سياحية للبنان، وبالرغم أن السائق هو من سيقود رحلتي، ولكنـــي كنت أنفذ التعليمات لأبدو كسائح أتى ليستمتع ببعض الوقت في هدوء لبنان القليل منذ الحرب الأهلية التي راح ضحيتها كثيرون..

كان علي أن أتسكع قليلا بين مطعم الفندق والاســتقبال حتى يأتي السائق.

جلست في ركن قصي في نهاية تســكعي، أحـــاول أن أركز في أي شيء وكيفما يكون.

لا شيء ينبت في الذاكرة الآن.

كأنني أبدأ حياة جديدة هنا، حياة وضع خطوطها الأولى الطاغوتي بسلطته وجبروته.

رحتُ أتأمل الهاتف المحمول بين يــدي لعــدة دقــائق، أرغب أن أسمع رنينه، أرغب أن تأتيني مكالمة أخرى من سلوى..

حاولت الاتصال بها على نفس الرقم الذي كلمتني منــه أمس عدة مرات، ولكن دائما خارج نطاق الخدمة أو مغلق كيفما اتفق.

كان التغيير الذي حدث في الخطة بالرغم أنـــه أقلقنـــي قليلاً، ولكن في نفس الوقت حررني من الالتـــزام برأفـــت وإحساس بالقلق لوجوده بجواري.

ما زالت كلمات الطاغوتي تقلقني: لا تثق في رأفت، لا تعطه ثقتك كاملة، هو غيرك.

بعد فترة لست أدرى هل طالت أم قصرت، سمعت رجل الاستقبال ينادى على اسمي خـــلال ميكروفـــون داخلـــي، ضحكتُ أهنا أيضًا يستعملون نظام المطارات.

قمت من ركني واقتربت من ركن الاســـتقبال والرجـــل يقول:

-أستاذ فؤاد، العربة التي طلبتها تنتظرك بالخارج.

ابتسمتُ له محييًا وأنا أنصرف من أمامه فـــي طريقـــي للخارج.

كان السائق يقف جوار السيارة في هدوء، شـــاب فـــي مقتبل العمر، طويل القامة، ذا نظرة حادة متفحصة، منظار شمسي يضعه بطريقة غريبة على قمة شـــعر رأســـه فـــي استهتار حقيقي، شاب من الشباب الذين لا يحملون للحيـــاة همًا، يكفي أنهم يعيشون شبابهم.

نظرة مرح الشباب تنطلق من عينيه في ألق وضاء.

ابتسمت له وهو يحييني ويقول:

- أستاذ فؤاد ؟.

هززت رأسي أن نعم.

فتح باب السيارة الخلفي بهدوء وهو يقول:

- من أين نبدأ؟

قلت في ابتسامة وأنا أقفل الباب الخلفي:

- لا أحب أن أجلس في المقاعد الخلفية، سأجلس بجوارك.

ضحك الشاب في جزل وهو يقول:

- المعظم يحب المقاعد الخلفية، تعطيهم نوعًا من الشعور بالهيبة والأبهة.

ابتسمت وأنا أفتح الباب بنفسي وأدخل وأشير له أن يأخذ مجلسه أمام مقود السيارة.

عدل وضع النظارة الشمسية؛ لتستقر على عينيه وهو يحتل مقعد السائق ويقول:

- لم تقل لي سيد فؤاد من أين نبدأ ؟.

قلت في بساطة:

-أحب أن أتسكع قليلا في شوارع بيروت، ثــم نتــرك الأمور تمضي.

هز رأسه وهو يدير محرك السيارة:

- ليكن..

راحت السيارة تمضي بنا وهي تقطع شوارع بيروت في هدوء وبسرعة هادئة كما طلبت منه، أتطلع للوجوه.. أرى الناس الذين يقطعون الشوارع فــي هــدوء غريــب، أرى السيارات المارة، كنت أريد أن أشعر بالازدحام وأن هناك بشرًا ما زال يحيا، أرى المحــلات وهــي تفــتح أبوابهــا للزبائن.. لبنان تتفتح كالزهور.. هــاهو فنــدق ميريــديان كوميدور ، بيروت الحمراء .. فترة تمر ألمح جامع البسطة التحتا.. بعد مدة أشاهد منطقة الحزب الــوطني اللبنــاني، هناك عمارات شاهقة معلــق عليــه صــور لكثيــر مــن الزعماء.. صور مختلفة ومتناقضة، هكذا أنت دومــا يــا لبنان.

منطقة الشويفات، حي الأشرفية، مسجد الأمين.. ســوق باب إدريس، سوق الطويلة

سوق الساحة، سوق سرسق، ســوق الأرمــن، بوابــة يعقوب .

مسجد العمري الكبير.الحبتور بيروت سن الفيل.

فينيسيا بيروت عين لمريسة.

مار الياس.. واطى المصيطبة.. كركول الدروز.. القريطم حيث اغتيل رفيق الحريري.

برج أبي حيدر وبربور.. حي اللجا.

شوارع تحكي تاريخ، وشوارع يحكيها التاريخ.

قال الشاب قاطعًا حالة التأمل التي غصت فيها:

- لبنان جنة.

هززت رأسي أن نعم.

وهو يردف:

- الحروب بأنواعها أثرت فيها كثيرًا، ولكننا شعب حر يحب الحياة، بيروت التي تراها الآن تعرضت للقذف والعدوان كثيرًا أحيانا من أبنائها، وكثيرًا من الإسرائيليين، ولكنها دومًا تقف على قدميها، فشل الإسرائيليون في سنة ٨٠ في دخولها.. حاولوا كثيرًا، ولكن المقاومة كانت شرسة وعنيفة ولم تسمح لهم بالاقتراب من بيروت؛ فانسحبوا، هناك حزب الله في الجنوب يقودهم

رجل محنك بالحرب، جيش صغير شبه منظم، أعتقد أنه من سنة ٢٠٠٠ وهو يحمي الجنوب.

هززت رأسي؛ فتشجع الشاب الذي راح يكمل تاريخ بلده في حماس قائلا:

– لبنان بها الكثير من الطوائف والنزعات ولكنها وقت الحرب تكون قوة واحدة على قلب رجل واحد، نهر الليطاني الذي ستراه بعد قليل أمامنا هو حلم من أحلام الإسرائيليين، يرغبون في مياهه بشدة كما يرغبون فى مياه النيل عندكم.

لم أحاول أن أسأله كيف عرف أنني مصري، ولكنه عرف بالتأكيد من اللهجة.. تابع بعد فترة لما وجدني مبتسما له قائلاً:

– سنة ٨٠ كانوا يسمون عمليتهم القذرة باسم الليطاني، ولكنهم فشلوا وانسحبوا منهزمين، نعرف أن الإسرائيليين لن تنتهي أحلامهم في لبنان، ولكننا سنقف لهم بالمرصاد وسنوقف أطماعهم القذرة، وسط جنوننا ووسط حروبنا الأهلية نحن شعب مربوط بالأرض، صعب أن تقتلعه من جذوره.

لم أكن أعلم لماذا بدأ الشاب هذا الحوار الطويل عن الانتماء والوطن.. ولكنني كنتُ مستمتعًا بحق، فبالرغم أن

الشاب يظهر من ملامحه وطريقه لبسه أنه قمة في الاستهتار، ولكنه يحمل بداخله قوة غريبة وانتماء بلا حدود..انتماء للأرض والجذور .. لماذا ذكرني هذا الشاب بالحارون بغتة.

لا أدرى! به الكثير من أفكاره مع استهتاره، نشاطه مع عبثه بالحياة..

ولكنني طردت هذا الخاطر جانبًا وأنا أقول:

- سنذهب إلى جونيه..أريد أن أركب التلفريك.

ابتسم وقال:

- كما تشاء، التلفريك يقولون إنه كان في السبعينات شيء آخر، أبي يقول كانت للبنان وجه آخر غير هذا قديمًا، وجه مشرق، هل تسمع عن ناجى العلي كان صديقًا لأبي..

هززت رأسي وأنا أقول:

- سمعت أنه أقام في لبنان فترة طويلة ومات مقتولاً في أوربا.

تابع الشاب قائلا:

- ناجي العلي كان أسطورة قتلته الأطماع والحكومات العربية، ناجي العلي كان عربيًا، اسمه محفور على حوائط التاريخ، أبي يقول هذا دائما كان صديقه.

زادت السيارة من سرعتها وهى تترك بيــروت خلفهــا وتأخذ طريقها إلى جونيه.

مرت مدة لزم فيها الشاب بالصمت، ولذت أنا بأفكاري.. من هذا الشاب ؟!

تاريخ لبنان يشرق في عقلــي، حروبهــا وانتماءاتهــا وطوائفها: شيعة وسنة، وأقباط، وزيديين، ودروز.

ملامح الناس التي تشربت الحرب ولم تعد تبالي.

وبعد مدة وجدت نفسي في جونيه، وكازينو لبنان يبــدو مشرقًا وجميلا في هذا الوقت، هناك قمم الجبال التي غطتها الثلوج.

هنا ترجلت وطلبت مــن الشــاب أن يســتمتع بوقتــه وينتظرني بعد ساعتين عند العربة ربما احتجت لشيء.

لماذا لم أسال الشاب عن اسمه، خاطر رهيب طــاردني أن يكون اسمه إبراهيم أو الحارون فلزمت الصــمت ولــم أسأله.. لماذا ما زلتُ ممسوسًا بك يا حارون؟.. لماذا؟!

جلست بعض الوقت في كازينو لبنان، شربت عصــيرًا خفيفًا، وتناولت إفطارًا شهيًا، كنــت أشــعر بــالجوع دون سبب.

بعد مهلة غادرتُ المكان مشيًا إلى التلفريك، كنتُ أنفـذ كل شيء في الخطة بمنتهى الحرص، ولكنني كنت أحاول أن أبدو أمام نفسي مستمتعًا بما يحدث.

بعدة مدة من الاستمتاع الزائف قـد تكـون سـاعة أو ساعتين كان على أن أتجه إلى مغارة جعيتا

تأملت المغارة في استمتاع حقيقي دخلتها مع فوج مـن السائحين، كنت مندهشا بحق أن لبنان ما زلت تحتفظ بجزء من روحها.. بغتة !.

وجدت يدًا تربت على ظهري، تربت في هدوء.

لم ألتفت فورًا..ألف فكرة دارت في ذهني وأنا أقف ثابتًا في مكاني.

هل هي سلوى ؟!

كلاّ.

هل هو سائح غريب ؟

كلاّ.

رأفت.

كلاّ.

الشاب السائق.

كلاّ.

ولكنني استدرت بغتة وبحدة غير مفهومة ولا أعلم مـا سببها، ولكن ثمة إحساسًا داخليًا أن المفاجآت لن تتوقف ما دمت أتعامل مع الطاغوتي.

ربما كان الشاب السائق نفسه أحـد رجالـه، لا شـيء مستبعد الآن، وإلا لماذا اختاروا لي شركة معينة لأتصـل بها وتأجير سيارة منها بسائق؟..لماذا ؟!

ألف خاطر يدور في عقلي..

ولكن عندما اكتملت استدارتي رأيته يقف عاقدًا ساعديه أمامي، وعلى شفتيه تتراقص ابتسامة أعرفها.

كانت المفاجأة هذه المرة مدهشة وفوق كل تخيلاتي.

لدرجة أنني أغمضت عيني وفتحتهما عدة مرات للتأكد.

وابتسامته تزداد اتساعًا.

إنه هو.

علاء.

كلاّ.

مستحيل !.

هذا أكثر من كل احتمالاتي.

ما هذا ؟!أأنا لعبة في يدهم مذ البداية ؟!

ـ علاء؟!! تمتمت مأخوذًا بينما هو يقول:

–أي نعم يا صديقي، هل كنت تنتظر شخصًا آخر؟ .

وألقى دعابة ثقيلة من فيلم قديم وهو يقول:

– آخر شخص تتخيله يكون رئيس العصـــابة، ودومًـــا يكون الجنايني.

وراحتْ ضحكته ترتفع بشدة وعنف، ويتـــردد صـــداها مخترقا وخارقا كل حدود عقلي.

مخترقا كل حدود الأحلام، حتى أحلام الحـــارون التـــي كنت أظنها أحلام بلا نهاية.

(١٢)

كان الماء ينزل علي جسدي بغزارة، كنت آخذ دشًا ساخنًا، وكأنني أغتسل من ذنوبي. كنت أحتاج لنهر كامل أغطس فيه لسنوات دون أن أخرج للأرض مرة أخرى.

كنت أريد أن أتطهر وأتطهر.

أتطهر من علاقتي بسلوى، وجرمين، والطاغوتي.

أتطهر من معرفتي برأفت وعلاء.

أتطهر من إحساسي بقتلي للحارون.

أتطهر من حروب البشر والطمع.

أتطهر من أحلام أوربا.

أتطهر من أحلام الحارون النارية.

أريد أن أولد من جديد، أعود طفلا صغيرًا يحمل أحلامه الضئيلة على كتفيه ويمضى.

الماء ينسكب وينسكب وأحسه يتخلل مسام جلدي، أشعر أنني أحتاج لسنوات تحت الماء، أحتاج لمطر لا نهائي.

أحتاج لسحابة تحملني فوقها.

أحتاج لأن أعود إنسان.

أحتاج جرستيني وحركاته الألمانية معي ومغالطته لـي في الحساب.

أحتاج أن تعود ليلى وأن ينطلق جرستيني الشهادة واسميه عبد الرحمن.

أريد لحظات المترو، والشاب صاحب الرواية، أحتاج روايته الآن لأقرأها لأقول له: لا يجب أن تنتحر البطلة، بل يجب أن تولد فى غير هذا الزمن.

أحتاج لحظات من الأمل..

أحتاج ابتسامة فرنشيسكا، رؤية المرآة التونسية وابنتها التي تتركها ضائعة بين المحطات مثلي.

أحتاج للحظات مع نفسي، نفسي تتآكل، وروحي تتضاءل.

أفكاري تتبعثر. والماء ما زال ينهمر فوقي بلا هوادة.

اليوم قد مرّ أسبوعان لي فى لبنان، مرّ أسبوعان بكل الغوامض والأشياء المريبة، ولم أقابل سلوى أو أتلقى منها مكالمة ثانية.

مقابلتي مع علاء كانت عاصفة، عاصفة مريبة وعجيبة ومدمرة.

لم أتصورها قط.

ابتسامته ونحن نركب التلفريك سويا وهو يقول لي:

-أهلا بك بيننا يا فؤاد، غبت عنا كثيرًا يا صديقي.

كنتُ مذهولا فلذت بالصمت، وأنا أترك له حرية الكلام..

كان كما هو لا يتغير، عباراته مقتضبة ومستفزة، أفكاره لا حدود لها لتقف عندها..

قال وهو يشاهد قمم الجبال التي غطتها الثلوج:

– مشكلتك يا صديقي أنك أبيض كالثلج، وربما هذا ما جعل الطاغوتي يوافق عليك، وما جعل سلوى تتمسك بك في هذه الصفقة.. خدمة لك ولنا.

ابتسمت ابتسامة ثلجية باردة وأنا أقول:

– قل كل ما عندك يا صديقي، فقد أصبح من الصعب أن أقاطعك أو أقول أنك أحمق، بل من الواضح إن المفاجآت التي تحملونها، وتحملوني بها لا قبل لي بفهمها.

أشار بيده إلى جبل بعيد وهو يقول:

– إنها أرضنا يا فؤاد، أرضنا التي ندافع عنها.

همست في قلق:

- الطاغوتي !

أردف وأصابعه معلقة في الهواء:

- الطاغوتي كما قلت لك سابقا، شخص غير سهل، إنسان قذر.. ولكن تجبرك الظروف أن تتعامل معه.. هو يحسبها بالمال ونحن نحسبها بالأرض.. الطاغوتي أقل خطرًا علينا من بعض الحكومات العربية.. على الأقل كما يقولون الذي تعرف ديته أقتله'..ونحن نعرفه، ولكننا نحتاجه، علاقاته لا نهائية، رجاله أكثر مما تتخيل، يمدنا بما نحتاج له، وهذا يكفي في هذه المرحلة بعدما تملص منا الحكام العرب..

قالت في بساطة:

- مبدأ ميكيافلي.. الغاية تبرر الوسيلة..ولكن يمدكم امن أنتم ؟!

قال في هدوء:

- نحن أبناء الأرض.. نحن العائدون.

قلت بلا فهم والتلفريك يهتز في رحلته بين الجبال:

- العائدون!! جماعة جديدة؟!

أشار بيده للأفق وهو يقول:

– العائدون حلم.. حلم أبيض بلون هذا الثلج.. قد نكون كحماس، قد نكون كحزب الله، قد نكون فدائيين.. ولكننا نحن العائدون لا مشاكل تخصنا سوى الأرض..الأرض التي اغتصبت وما زالت تغتصب عنوة وتحت أعيننا كل يوم..إننا العائدون للأرض، للحلم، للوطن، لأنفسنا.

قلت في صوت متهدج:

– الكثير من العبارات والخطب الجديدة. ولماذا أنا ؟ هه لماذا؟!

قال في ابتسامة:

– لأنك مثلنا ترغب أن تكون مننا، لأنك هارب مثلنا، هارب وترغب بالعودة.. ولأننا عرفناك لسنوات ودرسناك وصدقناك..أحلامك نعرفها..دخولك إلى أوربا نعرفه، ونعرف كم تعذبت منذ قدمت إليها..لأنك مخلص وهذا نادر، وطنك طردك ليس بالاحتلال مثل رأفت ولا بالعنف مثلي.. ولكن من قال إن الاحتلال هو احتلال من شعب أجنبي عنك فقط، الاحتلال من أبناء وطنك وجنسك أشد قسوة يا صديقي!! ..

لم أعلم هل أنا أهزّ رأسي أم أن التلفريك هو الذي يهزني أم كلمات علاء تأخذني لأسفل وأسفل.. المزيد من

العبارات الرنانة والخطب..لا أعرف ما يحدث لي ولكني حافظت علي دهشتي تتعاظم داخل نفسي وهو يردف:

– سلوى كانت ترغب أن تكون أنتَ، وأنا أراك مناسبًا.. فلهذا ما كان، ولولا أنني أصبحتُ وجه معروف والمخابرات الإسرائيلية والسورية ترصد تحركاتي في أوربا؛ ولذا أنا دائم السفر الترحال، كان لابد من وجه جديد لا يعلمون عنه شيئًا، فجاء اختيارك .

كانت المبررات برغم كثرتها لا تقنعني، ولكني حاولتُ أن أكون متفهمًا وهادئًا وهو يردف:

– والآن هناك تبديل بسيط في الخطة حدث لظروف طارئة، كان يجب أن تقابل سلوى في بنت جبيل، ولكن حتى لا أطيل عليك ستذهب أنت إلى بلدة الجابية في سوريا وسنوفر لك وسيلة مناسبة للسفر، ستترك الفندق بعد أسبوعين من الآن، سنتركك لتستمع ببيروت بعض الوقت، ثم هناك في الجابية سوف تتسلم عربة نقل مقطورة للفاكهة، ثلاجة كبيرة، بداخلها الصفقة، ستقودها لمدة يومين حتى تصل بها إلى بلدة دير القمر، نريد أن تتمهل في القيادة لأقصى درجة وتعطل نفسك بعض الأحيان بأي حجة، يومان كاملان يجب أن يمضيا قبل أن تدخل دير القمر بعد منتصف الليل.. هناك ستجد رأفت وسلوى..أعلم أن الأمر

. أشبه بالقصص البوليسية والمخابرات، ولكننا نتعلم من أخطاء الماضي..

قلت وأنا ألاحظ اقتراب رحلتنا لنهايتها:

- ورأفت معكم..أقصد أنه من هذه الجماعة..

قال في لهجة غريبة:

- لا تنس أن رأفت فلسطيني، ولكنه جزء من الصفقة أيضا ليس أكثر.. مثله مثل الطاغوتي جزء من الصفقة، لعلمك العربة التي ستقودها تابعة لأحد شركات الطاغوتي ليس بالاسم ولكنها تخصه، وتصريحاتها ستكون سليمة مائة في المائة، لذا لا تقلق..

هززت رأسي وأنا أقول:

- عجبا لكم !

ابتسم وقال:

- المقطورة الخلفية ستتغير في بنت جبيل وستظل داخل لبنان، والعربة نفسها ستدخل فلسطين بعد ذلك، بالنسبة لرأفت فهو وسيط بيننا وبين أخواننا في فلسطين حتى تكتمل الصفقة ويتسلم الأموال من تركيا في رحلة العودة.

خفت حركة التلفريك وهدأت بالتدريج ولكن مشاعري لم تهدأ لثانية فما يحدث يفوق كل قصص الخيال.

واستقر التلفريك فى مكانه فنزلت منه وأنا أقول:

- هل هذا كل شيء ؟

قال وهو يدس ورقة فى جيبي:

- هذه كل مراحل الخطة بحذافيرها، حاول أن تكــون على قدر المسئولية، احرقها بعد حفظها.

كنا قد أخذنا التلفريك رائحًا غاديًا بــين الجبــال لعــدة مرات، شعرت بالدوار..

كان شلال الماء الساخن ما زال ينساب علــى جســدي وذهني يصفي تدريجيًا، وأعود مرة أخرى لأرض الواقع..

رغم حجم المفاجآت أحسست أنني قد قبلت من البدايــة؛ لذا فإنه علي الاستمرار فى الأمر مهما حدث.. ومهما كانت النتيجة..

خرجت من الحمام وأنا أكثر هــدوءًا، ذهنــي يرتــب الأحداث كلها ومنذ البداية..

ليكن يا علاء..

ليكن يا سلوى..

ليكن يا طاغوتي..

ما زلنا فى أول جولة، والجوالات بيننا كثيرة..

نعم أيها العائدون !

نعم أيها الفارون !

ارتديت ملابسي، وطلبت من إدارة الفندق أن يجهـزوا ليّ الفاتورة، ثم اتصلت بسوس تلا للسيارات كما جاء فـي ورقة التعليمات، والتي قال مديرها إن السـيارة سـتكون جاهزة بعد ساعة أمام الفندق.

حزمت حقائبي، ونزلت إلى البهو وأنا أرسـم ابتسـامة عريضة على شفتي..

وجدت الحساب مدفوعًا كاملاً.. لم أتعجب لهذا.. وظللتُ فى بهو الفندق أشرب قهوة الصـباح وأحـاول أن أظـل مبتسمًا، غير مثير للريبة..

وبعد مضي ساعة وجدتُ من يخبرني أن السيارة جاهزة أمام الباب..

وهذه المرة لم أفاجأ وأنا أرى نفس الشاب ووقفته مستندًا على باب السيارة ونظارته الشمسية معلقة أعلى رأسه على شعره الكثيف، وعيناه تشعان بريقًا صاخبًا..

عندما رآني فتح لي الباب الأمامي فى حفاوة، ولكننـي هذه المرة ابتسمت وأنا أفتح الباب الخلفي وأدلـف وسـط حيرته وهو ينقل أمتعتي للسيارة..وأنا أتمتم :

- من حقي الآن أن أجلس فى المقعد الخلفي..

واتسعتْ ابتسامتي وتحولت إلى ضحكة نثبية غريبـــة، وأنا أتمتم لنفسي:

- لم تعد تحرقني المفاجآت ولا الأحلام..

(١٣)

هدوء رهيب يسيطر على أعصابي، كنت قد وصلت الجابية بالأمس، وكان علي أن أبقى يومًا أراقب الرجال في شركة الشحن وهم يحملون الثلاجة بالفاكهة والخضروات..

كل شيء يتم بهدوء رهيب وبلا أدنى ريبة حتى تشك أن ما يحدث مجرد شحنة من الفاكهة فقط معدة للتصدير..

الحقيقة كنتُ شديد التعجب لقدرة الرجال على الهدوء.. اقترب مني أبو فايز- أبو فايز هو أحد رجل الطاغوتي- الذي سيرافقني الرحلة حتى نصل لبنت جبيل..

اقترب بابتسامة عذبة غريبة وهو يقول:

- تشرفتْ بك الجابية يا سيدي.. ساعة واحد وينتهي الرجال من عملهم..

ارتشفت رشفة سريعة من كوب الشاي الذي أمامي وأنا أقول في هدوء:

- خذ وقتك يا أبا فايز لازال في الوقت متسع.

وبالفعل ما زال في الوقت متسع، فالساعة كانت تقارب الرابعة عصرًا ونحن سنتحرك بالعربة بعد منتصف الليل كما قالت الخطة؛ لذا كنت هادئًا وأنا أقول لأبي فايز:

- شركتكم كبيرة جدا أبو فـايز، ويبـدو أن تمويلهـا ضخم..

ابتسم وقال:

- نعم تمويلها ضخم فعلا؛ فنحن نصدر الفاكهة لجميـع دول العالم، ونستورد أيضًا من جميع دول العالم.

لم أرد أن أسأله عن علاقته بالطاغوتي، ولكنـي لزمـت الصمت وهو يقول:

- حبيب اللوز أكبر مُصَدِرٍ هنا، هو في هذا العمل منـذ زمن طويل، وصداقته عريضة وكبيرة..

قلت في بساطة:

- هذا واضح ولكني لم أره منذ أتيت هنا بالأمس.

قال ضاحكًا:

- حبيب اللوز نادر الحضور إلى الشركة ولكنه يتـابع أخبارها من مقره في جنيف حاليًا.

قلت في بساطة وأنا أرشف عدة رشفات من الشاي:

- ليكن.

راحت عيناي تتابعان الرجال وهم فى عملهم لا يهدأون منذ الأمس، مجموعة قوية من الرجال الذين يؤدون عملهم بمنتهى الجدية والصرامة..

قال أبو فايز بعد فترة لزمنا فيها الصمت وتخللها صوت رشفاتنا للشاي الساخن:

– لولا أن الأوامر جاءت إلينا ألا نحمل البضاعة إلا في حضورك ووجودك سيدي؛ لكنا انتهينا منها منذ فترة.

ابتسمت ابتسامة آلية وقلت:

– كل يسير وفق ما يرام.

كان أبو فايز يتكلم عن الصفقة كأنها بضاعة فاكهة فقط، وهذا ما كان يثير حيرتي، ولكنني لزمت الصمت ولم أتكلم معه بخصوص باقي الصفقة برغم أنني كنتُ متأكدًا أنهـا بين تلك الصناديق تنقل، صناديق الفاكهة كلها ليست فاكهة بكل تأكيد وإلا كان ما يحدث كله عبث..

مرت الساعة علينا ونحن نترقب الرجال في هدوء، حتى انتهوا من عملهم، وأشار رئيسهم أن السيارة جاهزة تماما، ناولني وقتها أبو فايز أوراقًا وهو يقول:

– أوراقك كاملة سيدي، أظن الآن أن نـذهب للغـداء.. ونعود معا ليلاً.

أجبته بلا مبالاة:

- ليكن أبو فايز..أليس لك اسم آخر.

ضحك وقال:

- كلاّ منذ زمن طويل لم يعد لي غير اسمي هذا.. هيا معي لنسترح قليلا..

غادرنا شركة الشحن الكبرى وأنا أشد تعجبًا لما يحدث، لا دليل واحد أن هناك شيئًا مريبًا، بل لا أشارة واحدة عن أي شيء..

ذهبت مع أبي فايز للغداء، ثم ذهبنا إلى شقة خاصة تركني فيها وهو يقول:

- سوف أعود إليك في الحادية عشر ليلاً.

وأشار لي محييًا وأنا في ذهول مما يجرى.

أخذت حمامًا دافئًا، وحاولت أن أريح جسدي بعض الشيء.

لا شيء أفعله سوى الانتظار حتى يعود أبو فايز، قرأتُ بعض الكتب والمجلات الملقاة.. استسلمت للدعة ومددت قدمي على كرسي أمامي، وفتحت التلفاز، وجعلت صوته على الآخر، كنت أريد أن أشعر بوجود ونيس معي أو جليس.

رحت أتطلع للمحمول في يدي آملاً أن تأتيني رسالة أو مكالمة من سلوى، ولكنه ظل صامتًا.

فتحت المحمول على لعبة إلكترونية، ورحت ألعبها في لا شعور.

لم أدر سوى بدقات هادئة على الباب والمحمول ملقى في حجري، و صوت التلفاز مرتفع للغاية .

قمت متثاقلاً ولكني وجدت الباب يفتح ويدخل أبو فايز وهو يقول:

- أين كنت؟؟ لقد قلقت عليك، واضطررت أن أستخدم المفتاح الاحتياطي.

قلت وأنا أتثاءب:

- من الواضح أنني غفوت بعض الشيء، عشر دقائق، وأكون جاهزًا.

خفض أبو فايز صوت التلفاز ثم أغلقه، بعد عشر دقائق كنت أقف أمامه جاهزًا للتحرك، فقلت في لهجة الواثق:

- هيا بنا.

انطلقت بنا سيارته إلى المخازن، استقبلنا العمال بلا مبالاة وفتحوا الأبواب لنا ببساطة.

أخيرًا أصبحت خلف مقود المقطورة التي تحمل الصفقة، وليس كل الصفقة.

فما زال الجزء الثاني من الصفقة لم يحن ميعاده بعد.

أشار لنا الرجال بالرحيل، استقر أبو فايز بجواري ولزم الصمت.

كانت ليلة مقمرة، وهناك نتف من السحاب تتاغش السماء.

انطلقت بالعربة غير عابىء بشيء، كل خطوة تقربني من سلوى وعلاء، وتبعدني عن نفسي.

السيارة تمضي والطريق أمامنا مفتوح للسرعة، وأبو فايز يدعي النوم بجواري، ولكنه ذئب آخر ينام بنصف عين.. وتحت قدميه كان يستقر صندوق مغلق من الصفقة.

بعد فترة مررنا على أول نقطة حراسة، ابتسم أبو فايز وهو يناول الرجال الأوراق، بينما هلل أحد العساكر:

- مرحى، مرحى برجال حبيب اللوز. ماذا تحملون هذه المرة؟

ضحك أبو فايز وهو يناولهم صندوقًا من جواره قائلا: فاكهة كالعادة وها هو نصيبكم يا رجال.

التقط العسكري صندوق الفاكهة وهو يضحك وقال:

- افتحوا الطريق لرجال حبيب.

وانطلقت مرة أخرى بالعربة وأنا شديد الثقة فيما يحدث برغم القلق الذي كان يعصف بي منذ قليل.

وأخذنا الطريق الدولي الذي سيقودنا إلى نورة، وصوفر، حيث نغير من هناك خط السير باتجاه دير القمر.

لم أكن في هذه الحالة سوى آلة تحبس نفسها خلف مقود شاحنة كبيرة، وينتظر الأمر بالإفراج عنه.

كنت أقود بسرعة بعض الوقت، ثم أتذكر كلمات علاء يجب أن أصل دير القمر بعد يومين كاملين، فأتمهل قليلا وأخفض السرعة.. بينما يبتسم أبو فايز ابتسامة غريبة وكأنه يقرأ أفكاري.

انقضى الليل وأشرقت الشمس بخفوت، وصلنا إلى إحدى الاستراحات على الطريق، نزلنا لنفطر ونشرب الشاي.

قال أبو فايز وهو يهبط:

- أنت سائق ماهر بحق، لم أشعر معك بأي قلق.

بعد فترة ركبنا الشاحنة مرة أخرى، وانطلقنا بها على الطريق الدولي، الذي كان يظهر ليّ كأنه يمتد إلى ما لانهاية..

راحت الساعات تمضي، والقلق يختفي تدريجيًا، مررنا بأكثر من نقطة حراسة ودوريات، ولكن شعار حبيب اللوز على العربة كان نقطة العبور لنا دومًا.

انقضت أول ليلة لنا على الطريق قال أبو فايز: يجب أن نرتاح بعض الشيء في الاستراحة القادمة.

وبالفعل كنت أحتاج للراحة، تيبست يدي من أمساك المقود، وظهري يحتاج للراحة.

نزلنا واسترحنا لمدة ساعتين، وبعدهما قال أبو فايز:

- يجب أن نكمل الرحلة.

لا أعلم لماذا يخيفني هذا الرجل أنه يحسب كل شيء دون أن تشعر به.

وكان يدندن كل فترة بأجزاء من شعر عربي كان يقول:

أتي غير مختار وفارق مضطرا ولم يك لما عاش في نفسه حر

ليتنا في مكاننا نستقر ليتنا في المسير لا نستمر

ليتنا كالأعشاب تنبت أخرى بعد ألف من السنين تمر .

لما وجدني مستمعًا له أردف قائلا:

ـ هذا شعر الزهاوي يحاول أن يحاكي رباعيات الخيام التي تقول:

"أتي بي إلى الوجود مضطرا ولم أزدد في الحياة إلا حيرة وقد ذهبنا مكرهين فلا ندرى ماذا كان القصد من هذا الإتيان والذهاب بنا"..

مؤثرة أليس كذلك ؟.

هززت رأسي أن نعم وهو يناولني عصيرًا مثلجًا أتى به من الاستراحة.

لزمت الصمت بعدها وأنا أحاول أن أنتبه للطريق وعاد هو ليمثل النوم..

بعد ساعات أمال جسده وهزّ رأسه ثم قال:

– في الاستراحة القادمة سنغير أماكننا يجب أن ترتاح قليلا.

ابتسمت له في لا مبالاة وأنا أقول:

– لا يهم لم يأتِ بعد وقت الراحة.

وبالفعل بعد الاستراحة بدلنا أماكننا، واحتل هو مقعد السائق، بينما جلستُ بجواره، وحاولت أن استسلم للراحة.

وأخيرًا مرتْ ليلة ونصف ونحن على الطريق ولم يتبق سوى القليل.. ساعات ونكون في دير القمر.. هي ساعات، ساعات التي تفصلني عنك يا سلوى مجرد ساعات.

وراح شعور رهيب يتسرب إليَّ.

إلى هنا ولم ينته أول جزء من صفقة الطاغوتى؛ فـأين سيكون حالي هناك فى باقي الصفقة؟! ..

من دير القمر لدهور قبل تقاطع الطريق الـدولي وفـى مرآب خاص ستفك المقطورة وتستبدل، هذا مـا أعلمـه، وهناك سوف تتجه الشاحنة إلى بنت جبيل، ومنها سـتنقل بأسلوب آخر إلى الرجال فى فلسطين.

عالم غريب نشأ حولي وسحبني إليه دون وعي..

عالم لم أتصور يومًا أنني سوف أدخله بقـدمي مهمـا حدث.

راحت الساعات تنقضي، وأنا أتابع الطريـق بعينـين نصف مغمضتين، بعد فترة هزني أبو فايز وهو يقول:

– اقتربنا، سأوقف السيارة؛ لنرتاح وبعد نصف سـاعة نرجع كما كنا.

هززت رأسي وقلت مقتضبًا: ليكن.

ومرت النصف ساعة سريعًا، وكانت الشاحنة قد أخذتْ طريقها على الطريق السريع مرة أخرى، ثم انعطفتُ بهـا بعد أن وصلنا إلى دير القمر.

كانت الليل قد أرخى سدوله، والقمر يبدو شاحبًا متخفيًا وراء سحاب ثقيل يركض في السماء، وكان الظلام سادرًا.

وتبعًا للخطة كان علي أن أقطع عدة شوارع وممرات داخل المدينة حتى أتلقى المكالمة على هاتفي المحمول أن الطريق آمن.

بعد برهة أتاني رنين الهاتف، بينما أبو فايز يصطنع النوم كالعادة.. كان الصوت مألوفًا، وبرغم هذا لم أستطع تميز صاحبه وهو يقول في اقتضاب:

- حمدًا لله على سلامتك..الطريق آمن تستطيع التقدم.

وأنهى اتصاله قبل أن أعرف من هو، ولكن بداخلي بدا لي الصوت مألوفًا وسمعته من قريب.

بعد عدة دقائق كنتُ أقطع ممرًا -على طريق مقفر ليلاً- خلا من المارة تقريبا، ولم تمض ربع الساعة حتى بدا أمامي المرآب الضخم وسط المباني المتناثرة حوله والهاجعة في هذا الوقت.

بمجرد أن اقتربنا من الباب، فُتح تلقائيًا، وفُتحت أبوابه على مصارعها، فولجتُ فيه غير عابئ بأي خطر.

وبرغم كثرة الأفكار التي تضرب عقلي، بدوتُ متماسكا لأقصى الحدود..

هززت أبا فايز بيدي؛ فقال مصطنعا التثاؤب:

- أنا هنا لا تقلق.

قلت فى اقتضاب:

- لقد وصلنا.

كان المرآب مظلما لا تنيره سوى الأضواء المنبعثة من فوانيس الشاحنة، وبدا الغموض هو سيد الموقف.

كان المرآب ضخما بالفعل، تراصت به شاحنتان أخريان تحملان نفس شعار حبيب اللوز.

وبمجرد أن أعتدل أبو فايز، وسكنت السيارة داخل المرآب، وأغلقت أنوارها، أضيئتْ أنوار لتسطع فى عينيّ فجأة وأبواب المرآب تغلق خلفنا إلكترونيًا..

وضحت الصورة أكثر، فبداخله كان هناك غرفة كبيرة مظلمة يقود إليها درج صغير.

ونزلنا من السيارة ووقفنا بجوارها ولم يكن قد ظهر لنا أي شخص بعد مما زاد من شعور المفاجأة بداخلي.

وبغتة كانت هناك أقدام تهبط الدرج فى هدوء وكان لها وقع على مسامعي.

وظهر أمامي فجأة فقلت فى دهشة حقيقية:

-أنتَ ؟!

كان الذي يقف أمامي الآن هو الشاب سـائق السـيارة المستأجرة من سوس تلا، وبرغم توقعي أنـه قُـربَ لـي شخصيًا تبعًا لأوامر محددة، ولكنني فوجئت حقًا لمنظـره وفي الملابس التي يرتديها وتلك الحلة الرائعة شديدة الأناقة التي تدل على شخص آخر غير سائق بالمرة.

لذا بدا لي الصوت مألوفًا عندما سمعته في الهاتف.

ابتسم الشاب تلك الابتسامة التي تبرق في وجهه وهـو يقول:

- بلى، إنه أنا.

وبدأت أصوات أخرى تهبط الدرج، وهذه المرة كـانوا ثلاثة، رجلين وامرأة.

أما الرجلان فهما رأفت وعلاء، والمرأة كانت سـلوى، كانوا يرتدون زيًا عسكريًا غريبًا، وقفازات جلدية وشـعار غريب يتوسط صدرهم.

وانطلقتْ ضحكاتي وسطهم، واهتز جسدي بعنف مـن كثرة الضحك، وأنا أتطلع إليهم محدقًا ضاحكًا دون سبب.

فقالت سلوى في هدوء:

- أوحشتنا يا فؤاد.

بينما تابع رأفت قائلا:

- كلاّ، لم توحشنا قط.

فقال علاء باسمًا:

- هو بيننا منذ زمن.

فقلت فى ثقة وأنا أحاول أن أخفف من حدة السعال الذي انتابني بسبب حالة الضحك الرهيبة التي تملكتني:

- من الواضح أنني لم أكن بينكم قط..

وبغتة كانت حركة نشطة تبرز وسط المرآب بناءً على إشارة من الشاب الذي لم أعرف اسمه للآن. رجال ظهروا من العدم تقريبا، وراحوا يفكون المقطورة الخلفية للشاحنة فى هدوء رهيب، يتضح من تحركاتهم أنهم محترفون بحق.

أشارت لي سلوى أن أتبعها، وأخذتْ طريقها إلي الغرفة العلوية التي تبرز فى جانب المرآب.

فى حين راح رأفت يشرف على الرجال المنهمكين فى نقل وتفريغ الشاحنة، بينما كان علاء يقف مبتسمًا بجوار سائق سوس تلا الذي تحول إلى شيء آخر.

وأبو فايز يقف فى حالة من النشوة.

صعدت خلف سلوى وأنا أحاول أن أبدوا متماسكًا كأقصى ما يكون، حجم المفاجأة برغم غرابته كان بداخلي إحساسًا أنه طبيعي ومناسب لجو الغموض حولي.

أضاءت الغرفة، واستقرتْ خلف مكتب يحتل جزءًا ضخما من الحجرة، وأشارت لي أن أجلس وهي تقول:

- اجلس لم ينته الرجال الآن.

بدتْ لي قوية، ومتمكنة وواثقة، بل بدتْ سلوى أخرى لم أعرفها فى حياتي من قبل.

كنت مستعدًا لسماع أنفاسها، رحيقها الذي يطغي على المكان، كل شيء كنتُ مستعدًا لسماعه، ولكنها ظلتْ صامتة لفترة. وأنا أتململ فى مقعدي، أتطلع إلى عينيها، كأنني أحاول الإبحار فيهما، صامتًا صموتًا لأقصى حد.

وفى النهاية قالتْ وهي تنقر المكتب بأصابعها:

- أتعبناك معنا، ولكننا لم يكن أمامنا حل آخر.

وابتسمتْ وهي تردف:

- وطريقة أخرى كي نراك.

ابتسمتُ ثم تحولت الابتسامة إلى ضحكة عالية وأنا أقول:

- لا تقولي أن كل ما حدث كان بغـرض أن ترينني، فهذا لا يصدقه طفل رضيع.

قالت وأصابعها ما زالت تنقر المكتب:

- جزء من الحقيقة أنني كنتُ أرغب في رؤيتك حتى..

قاطعتها وأنا أقول:

- حتى ماذا ؟!

لم تلتفت لكلماتي وهي تستطرد قائلة:

- والجزء الأكبر أننا كنا نحتاج لشخص نثق فيه، ولـم يكن أمامي سواك، برزت في عقلي بغتـة كأنـك الحـل الوحيد، خصوصًا بعد أن أصبح علاء ورقة مكشوفة.

قلت في لهجة غاضبة:

- وهل تهديد الطاغوتي بسجني وطردي من أوربا إذ لم أوافق نوع آخر من الثقة؟ لن أنسى قط تهديده لي أن هناك ألف شاهد سوف يشهدون بقتلي للحارون، وهنـاك أشـياء أخري يستطيع تلفيقها لي لأقضي باقي عمري في السجن، أكان هذا أيضا نوعًا من الثقة؟

وتابعتُ والغضب يتملكني، وأنا أراها تنظر لي بتحد:

- لم أظن أنكم أصدقائي تصلون إلى هذا الحد بتهديدي، وأنتِ بالذات لم أكن أتصور منك هذا قط، أنتِ بالذات.

قالت في هدوء متراخ:

-هل انتهيت من نوبة غضبك، أتسمح أن نتكلم بعقلانية بعض الشيء، كانت الصفقة ستتم بك أو بغيرك، أنتَ دوما تشتكي من عملك الآلي ومن حياتــك هنــاك وصــعوبتها، وجدت أنها فرصة مناسبة لمساعدتك، وبالطبع لأني أعرفك جيدًا كنفسي، كنتُ أدرك جيدًا أن هذه الطريقة هي الوحيدة كي نضمن موافقتك، وكي لا أطيل عليك أظن أننا قدمنا لك خدمة عمرك.

كانتْ تتكلم بأسلوب لم أعهده منها، كانتْ كأنها تســيطر على كل شيء وبصدق.

اتسعت ابتسامتي بغتة وأنا أقول:

- المزيد من المبررات، الغاية تبرر الوســيلة مــا زال ميكيافلي يسيطر عليكم، خدمة عمري!!

وارتفعت ضحكاتي وأنا أستدرك:

-خدمة عمري! يا لها من خدمة!، وهل الجزء الآخــر من الصفقة خدمة عمري أيضا؟!

أجابت فى هدوء مستفز حتى شككت أنها أصبحتْ نسخة أخرى من علاء وهى تقول:

– لا علم لنا بالجزء الثاني من الصفقة، هو يخصك أنت والطاغوتي فقط، وبرغم معرفتنا أنه عرض عليك جـــزءًا آخر من صفقة أخري، ولكننا لا نريد أن نعرف ما هو، ولا أظن أنك ستقول ما هو.

هززت رأسي وأنا أقول:

–أهذا كل شيء ؟!

قالت فى هدوء وهى تداعب شعرها بيدها:

– وهل كنت تنتظر شيئًا آخر؟!

تمالكت أعصابي حتى لا أقوم لصفعها وأنا أقول:

– كنتُ أنتظر الكثير، ومن الواضح أنني كنتُ واهمًـــا وغبيًا.

ابتسمت ابتسامتها الرقيقة والتمعت عيناهـــا الـسنجلاوان وهى تهمس:

– أظن أنه يجب أن تعرف شيئا، والآن...

وبدأت تخلع قفازها الجلدي وتضعه جانبا قبل أن ترفـــع يدها؛ لتصبح فى مقابلة وجهي وهى تقول:

- إنني مخطوبة الآن، وهذا ما حاولت أن أقولـــه لـــك كثيرًا ولم أستطع.

هذه المرة جفت الكلمات فى حلقي، وبرغم إنني لم أكن انتظر شيئًا كهذا قط، ولكني تداركت الأمر بسرعة، كثـــرة المفاجآت جعلتها شيئا عاديًا لا يضيف جديدًا.

وهمستُ فى آخر الأمر بصوت متألم:

- إذن هذه هي النهاية، نهاية الحكاية كلها.

واغتصبتُ ابتسامة وهي تقول:

- هذا ما يخصنا نحن..ولا دخل لنا بأي شيء آخر.

مشاعر رهيبة كانت بداخلي، بركان يريد الانفجار.

بعد برهة دقت جرسًا بجوارها، فلم تمض لحظات، حتى وجدت الشاب السائق قديمًا يقف قبالتنا وهى تقول:

- أظن أنكم تعرفتم سابقًا، ولكن يجب أن أعرفكم مـــرة أخري ببعض.

فقاطعتها فى تحد:

- خطيبك أليس كذلك؟!

ارتفعت ضحكاتها أكثر وهى تقول:

- يا ليت، إنه حاتم أخي، ورئيس الجناح العسكري لنا.

ضحك حاتم وقال:

- تصوري أنه لم يسألني عن اسمي قط.

قلتُ في غضب مكبوت:

- ظننت أنه خطيبك.

بينما دلف علاء وقتها وقال ضاحكا:

- أخطأت في تخمينك هذه المرة يا صديقي أيضًا، ألم أقل لك آخر شخص تفكر فيه يكون زعيم العصابة ودوما الجنايني..

واقترب من سلوى ضاحكا وهو يردف:

- سلوى خطيبتي أنا، ومنذ مدة يا صاح.

حينها أُسقط في يدي، ولم أستطع أن أنطق حرفًا لوهلة وأنا أتطلع إليهم في دهشة، وصوت يخرج من شفتي مهزوزًا وأنا أقول:

- مبارك..مبارك..

قال حاتم:

- بل مبارك لك أيضا وصول الصفقة بالسلامة.. إلـــى هنا سوف تنتهي مهمتك، وسيكمل رأفت وأبو فـــايز بـــاقي الرحلة .

قالتْ سلوى في هدوء:

- ستبيت هنا الليلة، ثم لك مطلق الحرية أن تعود إلـــي أي مكان.

لم يكن لي مطلق الحرية في أي شيء، وكنت مـــا أزال مسلسلاً بأغلال الطاغوتي وباقي الصفقة، وأعلم جيدًا أنني لو تراجعت سهل عليه جدًا تصفيتي وقتلي.

وبدا أمامي الوهم الكبير يصغر، ويصغر.

أنت أيضا كانت لك علاقـــة بجـــرمين وكنـــت ســـوف تتزوجها، فماذا تبغي منها؛ لتعيش كما تشاء، تكـــون مـــن العائدين أو الفارين أو حزب الله.

لها ما ترغب أن تتزوج وتحب وتنجب أبنـــاءً آخـــرين للعائدين..

ومازالت الأحلام بعيدة يا صديقي، ما زالـــت الأحـــلام بعيدة يا حارون.

وما زالت الصفقة مستمرة ولكن هذه المرة كنت أعرف الطرفين وأدرك حجم كل شيء.

أنا والطاغوتي، بينما الآخرون خارج حساباتي.

ليكن يا سلوى.

الأرض ملككم وأنتم أحرار ولكني ما زلت أسيرًا.

(١٤)

تساقطت الثلوج بشدة وتعثرت حركة السير على الطريق الدولي المؤدى لقلب أوربا.

كان رحلتي إلي لبنان قد انتهت، وانتهى معها جزء من حياتي، جزء كنت أظن أنه حقيقة ومن ثوابت الحياة.

فعندما تدمن الملل والقلق صعب أن تعيش دونهما، لـذا برغم النجاح النظري ووصول صفقة السلاح إلى جماعـة العائدين أيًا كانت هي، تسبب لي نوعًا من القلق العاصف، هل أخطأت؟!

فهناك وضعت النهاية لكثير من العلاقات الغريبة التـي بدأت في حياتي، وانتهت دون أن يكون لي دخـل حقيقـي بها، مجرد دمية في يد أشخاص، كنت أظن أنهم جزء مـن حياتي.

أشخاص آخرون لم أدر هل عشت بينهم هل صادقتهم، هل أحببتهم ؟!!

مئات بل آلاف الأسئلة التي تبحر عبر عقلي..

دُفعت لأن أكون وسيطًا في لعبة سلاح، لعبة في يد سلوى، وعلاء، ورأفت.. الطاغوتي..أشخاص الحكاية التي دُفعت إليها دون إرادة، أشخاص وهميين وحقيقيين.

وبرغم الحنق الذي كان يغلي بداخلي، كنتُ أحافظ على ابتسامة عريضة، وأنا أبارك لهما بالخطوبة، وأبارك لرأفت بوصول شحنة الأسلحة إلى فلسطين بعد أسبوعين.

كان منطق رأفت وعلاء لتعاونهما مع الطاغوتي غريبًا، وربما بدا منطقيًا ولكنه منطق غريب حقًا.

قال علاء وأنا أجهز نفسي للسفر بعد أن قضيت مدة معهم في دير القمر:

– لقد كنت عونًا لنا يا صديقي، وقدمت لنا خدمة العمر خدمة لن أنساها لك قط.

قلت له بابتسامة:

– برغم أنني لن أغفر لكم تغفيلي كل هذه المدة، ولكن لي سؤال لماذا ؟.

قال علاء فى هدوئه الممل:

– لا تنس أنى سوري ومصري، أمي مصرية، الأرض أرضنا يا صديقي، أخوالي ماتوا فى النكسة، شربت الأرض دمائهم فى سيناء ماتوا مجبرين ومخذولين، أمي

كانت دومًا تسقيني حب الأرض مع كوب لـــبن الصـــباح، سلوى مثلي تريد أرضها، ورأفت بالطبع بـــرغم تحفظـــي مثلك على شخصه ولكنه فلسطيني وهذا يكفى كي أتعامـــل معه ؟!

همست كالعادة:

– الطاغوتي ؟!

قال فى عصبية آنذاك:

– لماذا تعود إلي هذا السؤال دومًا؟! ربما تتعجب مـــن تعاملنا مع الطاغوتي، ولكن ألا تتعاون إسرائيل مع أمريكا في كل شيء وفي صفقات السلاح التي لا تنتهـــي والتـــي تدعمها بها أمريكا..

صمت للحظة التقط أنفاسه ثم قال:

– هل أمريكا هي دولة ذات حيادية وسيادة، وهل هـــي دولة شرعية؟ أنهم مجرد لصوص وقطاع طرق قذف بهـــم العالم فى وجهنا، نحن أصحاب حضـــارة وهـــم أصـــحاب سوابق عنف رهيـــب، العـــراق، أفغانســـتان، الصـــومال، فلسطين نفسها ضحية لعبة غربية قذرة.

دخلت سلوى حينها على كلماته وداعبت شعرها وهـــى تستمع الحوار وأردفت قائلة:

- بالطبع، أمريكا ليست حامية العدل في العالم وليست دولة ذات قانون حق، ولكنها مثل الطاغوتي، فيجب أن نتعامل مع الطاغوتي بمنطق الدولة، الطاغوتي دولة بعلاقاته وأمواله وشبكة التعامل الرهيب التي يختص بها، قد يكون قذرًا، لكنه ليس بقذارة أمريكا وحكامها.

قال علاء وهو يبتسم لها:

- أرأيت ؟.لك الآن أن تنسى يا صديقي ما حدث معك وسوف نتقابل مرة أخرى بكل تأكيد.

قلت في هدوء:

-لا أظن أننا سنتقابل مرة أخري.. وداعا ..

غادرت المكان بشخوصه، وجنونه وعبثه، غادرت وأنا متأكد أن الحياة تخفي عني الكثير والكثير.. الجنون آت..

****

هدأ كل شيء لعدة أيام بعدها كان علي أن أنفذ الجزء الباقي من الصفقة.

أخذت الطائرة إلى كرواتيا حيث كان يجب أن أتسلم الجزء الثاني من الصفقة وهذا ما كان يقلقني أكثر.

قال علاء وهو يودعني:

– لا دخل لنا بباقي صفقتك مع الطاغوتي، وحتى تهديده لك أنه باستطاعته أن يجلب ألف شاهد أنك قاتل الحـــارون وهارب في أوربا لا دخل لنا به.

إذن فقد أخبرته سلوى بحديثنا، اســتمعت إليــه وهــو يرد:

– الجزء الآخر من الصفقة يخصك أنت، ومن حقك أن تتراجع.

ضحكت وقتها بشدة وأنا أقول:

– مظهرك رائق وأنت متنكر يا صديقي، لم يعد هنــاك مجال للتراجع، يجب أن استمر في اللعبة للنهايــة ومهمــا كانت النتيجة، نصيحة أخيرة احترس فقد يسقط الشارب.

بدا الطريق ثلجيًا أكثر من اللازم، وهذه المرة كنت أقود الشاحنة وحدي إلى قلب أوربا، كنتُ أشعر بدرجة رهيبــة من القلق عما أحمله معي هذه المرة.

كنت أرتعش بشدة برغم إغلاق النوافذ، وبرغم طــول الرحلة التي قد تستغرق خمسة أيام فــي منــاطق وعــرة وطرق جبلية مخيفة، كنت شديد الثقة أنني كما وصلت أول مرة سوف أصل.

الحارون الذي لم يدخل أوربا إلا جثــة ســيدخلها الآن بحمله الرهيب، ما زلت ممسوسًا به.

كان كل شيء يبدو لا منطقيًا، وصولي إلـى كرواتيـا واستلامي نصف المبلغ، وفتح رصيد جديد فى بنـك ثـم تحويلي للمبلغ لحساب خاص كل هذا كان لا يبدو منطقيًـا، ما الذي يدعو الحياة أن تعطيني هذه الفرصة.

وهل كنت على حق منذ البداية.

الغاية تبرر الوسيلة..

الوسيلة لا تبرر الغاية.

ميكيافلي يبرز لسانه فى وجهي..يـا أحمـق مـا زال الطريق طويلاً.

الشعارات القديمـة والجمـل الممطوطـة والليبراليـة والاشتراكية والرأسمالية، عالم كله جنون مصطلحات.

ولا شيء حقيقي.

ما زالت أحلامك غبية مثلك يا فؤاد..

الممرات الجبلية تقترب وتمتد، والليل يتسـحب كلـص خفي.

وفى الغابة الشرقية التي غطاها الجليد يجب أن أخوض الرحلة.

أوقفت الشاحنة بعد فترة طويلة.. الليل سادر.

والغابة مفروشة أمامي بأشجارها التي تبدو كقمم جبلية.

بدا لي أن نهاية الرحلة قد هانت، وأن السبيل الوحيد للخلاص قد حان، كل شيء بداخلي كان رافضًا، ولكن الاستمرار لا مناص.

ليتني لم أكن قط هنا.

بدأ الليل يزوم حولي بريحه العاصف، حتى خيل إلي أن هذا الطقس لن ينتهي قط.

تأكدت عدة مرات من سلامة الصفقة.عيون كثيرة تحدق في عيون بها الدهشة والترقب والقلق الهادر. وعيون تنظر للمستقبل بوجل أولا تنظر.

عيون أتعبتها رحلة الحياة، وعيون لم تعد تعلم عن الحياة أي شيء.

أشياء كثيرة تعصف بداخل نفسي أين أنت يا حارون؟.. أين ؟

عدت إلى مكاني في الشاحنة، وحاولت أن أنام ساعتين؛ حتى تتوقف الثلوج عن الانهمار، بجوار الشاحنة كان الظلام مكثفًا وضاغطًا.

كانت عيناي لا تخترقان حدود الغابة المظلمة.

يسارًا يوجد ممر جبلي يجب أن أقود فيه بحذر، ويجب أن أتابع الخطة بحذافيرها؛ حتى أصل بالشاحنة سالمة والبضاعة ولم ينقص منها شيء.

كم هي رهيبة هذه المرة.

وأنا أيضا بضاعة، كيف تتحول إلى بضاعة الأحاسيس، والنبض، والآدمية، كله يتحول إلى بضاعة في زمن الطاغوتي.

أغلقت عينيّ ونمت أو حاولت التظاهر بالنوم.

الليل مقبض والطريق شديد الوعورة والرحلة ممتدة.

ثلاثة أيام بين ممرات جبلية وطرق غير مطروقة وبين حراس مرتشين يسهلون لك الأمر كانت الشاحنة تمضي بحملها.

الطاغوتي يسهل لي الأمور لأقصى درجة.

وفي منتصف المسافة تأكدت من الجزء الخاص بي من الصفقة، وأجريت مكالمة تليفونية من أحد المطاعم.

وأخيرًا أصبح الطريق أمامي واضحًا.

وهناك في بلدة (ورافنا) استقرت الشاحنة على أحد الأرصفة بحمولتها.

هبطت منها للبلدة نفسها ورحت أتجول فـــي شـــوارعها بعض الشيء قبل أن أدخل إلى مطعم للمأكولات البحريـــة، كان هناك موعد محدد مع جرستيني هنا.

انتظرت قليلا وطلبت الغداء، وبغتة رأيته أمامي.

جرستيني بهيئته التي لم يغيرها الزمن مدة غيابي عنه، ولكن هذه المرة كانت ليلى تتعلق بذراعه ضاحكة.. قـــال مرحبًا:

- مفاجأة !.

استقبلتهما باسمًا، واحتضنني جرستيني بشوق وهو يربت على ظهري قائلا:

- ذئب فؤاد، ذئب حقيقي.

قلت في ابتسام:

- مرحبا بعودتك ليلى، مفاجأة مدهشة!

قالت ليلى:

-أين أنت يا رجل، لولا تعلقي بإبراهيم اليوم ما رأيتك.

قلت دهشا:

-إبراهيم ؟!

ابتسم جرستيني وازداد وجهه احمرارًا وهو يهزّ رأسه.

وأشار جرستيني لصدره قائلا:

- نعم إنه أنا، أنا إبراهيم الآن فؤاد.

وانطلقت ضحكته صافية وأنا أهزّ رأسي أغمغم:

- إذن فعلتها يا جرسيني ؟!.. ليلى كنز يا جرستيني، لا تفرط فيه أبدًا.

لمحت وجه ليلى وهو يتورد خجلا، ثم قالت ضاحكة:

- إبراهيم يا فؤاد اسمه الآن إبراهيم.. دومًا مجامل .

قال جرستينى:

- بل هو ذئب.. دوما ذئب، لقد تزوجنا فؤاد.

قلت وأنا أجلس:

- مبارك، مبارك ليلى

احمر وجهها خجلاً وهي تقول:

- شكرا، ألن تطلبا لي الغداء؟!.

هزّزتُ رأسي ضاحكا:

- بالطبع تفضلا ! أنت عروسة الليلة.

ظل جرستينى يتطلع إليّ بعينين واسعتين، كان يريد أن يقول المزيد.

عيناه تنطقان.

ابتسمتُ له تلك الابتسام التي يدرك معناها داخله، فهمس لليلى أننا سنقف قليلا بالخارج لأمر ما.

فابتسمتْ وهي تقول:

– وتقولان لي إني عروسة اليوم، ها أنتمـــا تحـــاولان الهروب مني.

قلت في ابتسام:

– الحقيقة أني من يريد جرستيني في مهمة عاجلة.

قالت:

– تفضلا، فأنني أفهم.

خرجنا سويا تطلع جرستيني للسماء فوقنا والتي تنـــذر بعاصفة قادمة من الجليد وهمس قائلا:

– أيامك كلها أصبحت جليدية فؤاد.

أومأت برأسي وأنا أقول:

– وأنت جرستينى أيامك القادمة ستصبح ساخنة، ليلـــى ليست سهلة.

قال ضاحكا :

– ليلى عمري القادم فؤاد، عمري كله .

قلت ضاحكا بالمثل:-أصبحت مسلمًا جرستيني، لا أصدق.

احمر وجهه وتورد وهو يقول:

-أنا مسلم صح؟ فؤاد أنا مسلم.

وابتسم لليلى التي كانت تجلس إلى المائدة وتتابعنا بطرف عينيها، وكل فترة ترمق المكان الذي نقف به كأنها تتأكد من وجودنا وأننا لم نهرب بعد.

كان هناك نوع من السحر ينطلق حولها..

حقا هي فاتنة.. سحر الشرق كله ينطلق من محياها، حقا لم يكن أمام جرستيني أي فرصة للمقاومة والنجاة من حب كهذا.

همستُ وأنا أرى جرستيني يتابعني بعينين واسعتين متحفزتين:

- ليلى حلم جميل جرستيني، حلم لا تتركه قط.

قهقه بصوت مرتفع والتقط أنفاسه وهو يهزّ يديه طربًا:

- ليلى حياتي، حياتي كلها.. كنت سأموت دونها فؤاد..جرستيني كان يموت فؤاد.

مد يده تحت الجاكت الذي يرتديه وناولني في حركة خفية مسدس الحارون وهو يقول:

- ميراث أجدادنا فؤاد.

هذه المرة لم أتمالك نفسي وانطلقت الضحكة صافية وأنا أتمتم:

- أصبحت محسوبًا علينا جرستيني، ميراث أجدادنا هه؟!

قال ضاحكا:

-الإسلام يجبّ ما قبله يا فؤاد، لا تنس أن ليلى بحر في علوم الدين وأنا سوف أصبح داعيًا قريبًا.

وأردف ضاحكا وأنا أتطلع له:

- ذئب فؤاد، لم تتغير الذئاب لا تتغير، ذئب قاتل أنتَ.

قلتُ في ابتسام: أنا ذئب وأنت نسر، نسر يبغى سحر الشرق كله.

اتسعتْ ابتسامته الرائقة وهو يقول:

- أنا إبراهيم.. الآن اسمي إبراهيم، وأحمل ميراث الأجداد..أنا منكم فؤاد صح؟!

قلت في هدوء:

– مرحبا بك إبراهيم بيننا، ومرحبا بميراث الأجداد.

قال متسائلا:

-هل ستنجح ؟!

قلت وأنا ألمح الشاحنة المستقرة بحملها الرهيب في الشارع:

-أتمنى أن أنجح، ربّما يعود فؤاد، ربّما !

قال في شبه تأكد:

– ستعود، ستعود فؤاد،أنا واثق .

قلت في صوت محايد:

– أنت واهم جرستيني.. واهم جميل

قال وهو يشير لي أن أتبعه إلى سيارته:

– باقي الأمانة معي.. سوف تأخذها الآن؟

قلت في ثقة:

– لن أترك شيئا للزمن يا صديقي..لم يعد لدي شيء لأتركه.

قال بغتة:

– أحلامك يا فؤاد؟!

قلتُ في صوت متراخ:

- أحلامي احترقت يا صديقي، ولم يعد لها أي مجـال هنا.. أما زلتَ نازيًا يا صديقي وتفكر في الأحلام.

فتح باب السيارة وهو يلتقط ظرفًا ضخمًا مغلقًا، ثم قال:

- وأنـت ذئـب، والـذئب لا يفـرط فـي أحلامـه بسهولة.أوراقك..

تناولت منه الملف وأنا أقول:

- كان يجب أن أدع كل شـيء يمضـي كمـا يـراد له.ولكن. ..

قاطعني في حماس:

- أنت ذئب، ذئب لا يقبل الترويض، وقد أخطئوا؛ حينما ظنوا أنك حمل وديع.

قلت فى عدم مبالاة:

-الآن وداعًا يا صديقي أيًا كنت، جرستيني أم إبراهيم، وداعًا حتى نلتقي، لو كان هناك لقاء آخر.

قال فى ثقة: سيكون..ألن تودع ليلى؟

قلت في همس:

- سأعود جرستيني كما قلت أنت، أو لا أعود، وفي الحالتين لا أحب لحظات الوداع.

هربتْ أقدامي على الطريق وأنا أبتعد وأبتعد.

وتحت إبطي استقر مسدس الحارون وفى يدي ملف يحوي أسرارًا لا نهائية، كل ما أمرت جرستيني بجمعه عن العائدين وأسرار أخرى وارتباطهم بالطاغوتي.. ملف كامل به كل أجزاء الخطة وتحركاتها .. والصفقة التي أحملها.. كل شيء يسمح بوضع الطاغوتي فى السجن إن كان وحده.

أشرتُ لليلى وجرستيني اللذين وقفا لتوديعي على باب المطعم وأنا أحتل مكاني خلف المقود.

وانطلقت الشاحنة، والأفكار والرؤى فى عقلي تنطلق بالمثل ..الرحلة تشارف النهاية.

أحلامي النارية قد احترقت بالكامل وأحرقتني..الشوارع التي أعرفها تقبل وتفتح أبوابها، الشوارع التي كانت تلفظني تستقبلني مفروشة بالثلوج، الطرق التي حفظتها وحفظتني من كثرة تسكعي باتت واضحة.

لمدة ثلاثة شهور غائبًا عن هذا الوطن المزيف، كنت أجمع كل شيء بمنتهى الحرص، والحقيقة أن المبلغ الذي أعطاني إياه الطاغوتي كان يسهل لي الأمور.

وكان جرستيني معاونًا لي بدرجة رهيبــة.. كــم هــو مخلص هذا الرجل !.

قال لي في آخر اتصال بيننا:

– كل شيء تم..المستندات موجودة في جميع السفارات العربية، وبها كل شيء عن تلك الجماعة السرية.. ولكــن أتظن أنهم سيتحركون ؟!.

أجبته آنذاك:

– كلاّ..السفارات والدول العربية تتحــرك دومًــا بعــد خراب مالطة وليس قبل هذا، ولكــن يجــب أن يعلمــوا.. ويجب أن تعلم سلوى، ويعلم الآخرون إنني لســت دميــة يحركونها كيف شاءوا.. وأنهم اختاروا الشخص الخطأ.

قال فى توجس:

– ألست خائنا الآن فى نظرهم ؟!

ضحكتُ وأنا أجيبه:

– ما بني على باطل فهو باطل جرستيني..وبرغم هذا لم أبلغ عنهم إلا بعد أن تأكدت من وصول شحنة السلاح إلى مكانها وإلى أيديهم، وهم يدافعون عن قضيتهم، وأنا أدافــع عن عبثهم بي.

نفس المنطق .. ميكيافلي يعود.

ثلاثة شهور مدة كافية لمراجعة كل حسـابات.. مـدة تجعل ما مرّ بي مجرد جنون.. جنون مطبق.

وجدت نفسي أتطلع للطريق وأنا أتمتم:

- هل حان دورك يا طاغوتي.

كان خيالي ما زال منطلقا وبشدة ويشطح إلـى مـا لا نهاية..

سلوى ما زالت تضرب خيالاتي، يا لها من لغز!

رغم كمية المفاجآت التي تعرضت لها لكن مفاجأة سلوى كانت قاصمة، حتى لو أنكرت هذا بيني وبين نفسي، كانت الدليل الحي على أنني أحمق وغبي..أنني لست بخائن لهم، كم أكره الفكر الصهيوني وهيمنته الرهيبة على العالم، وكم أكره ميكيافلي..وكم أكره كل غاية تبرر الوسيلة، أي غاية تلك التي استغلوا فيها حاجتي وحبي ليتلاعبوا بي..أي غاية تلك التي تهدم الإنسانية.. وهل علاقتهم بالطاغوتي غاية ؟!

لم أكن أدافع عن نفسي ضد نفسي، فأنا أعلم جيدًا أن ما قدمته للسفارات العربية غيـر ذي جـدوى الآن بعـد أن وصلت الشحنة إلى مستقرها.. ولكن مستقبلاً..من يدري..

الطريق يمتد والجو يزداد برودة والظلام يطبق، وهناك ظلام آخر داخل نفسي.

ها هو النفق يظهر قبل دخولي له كان علي أن أجـــري مكالمة مع الطاغوتي حسب التعليمات أعلمه بالوصول.

كنت مدركًا لأنني يجب علـــي أن أحتـــرس فـــي هـــذه المرحلة بالذات..

اتصال هاتفي سريع وكلمتان فقط:

- الشاحنة على الطريق.

وأغلقت الخط وأنا ألج النفق المضيء وقد بدأ الثلج فـــي التساقط..

كل شيء هنا يبدأ بالثلج وينتهي بالثلج، حتى العواطـــف والحياة.

كل شيء ثلجي كأنني يجب أن أكون دومًا شخصًا أبيض كما كانوا يظنون، حتى أنني ظننت مثلهم أنى سأطلق على نفسي لقب رجل الثلج الأبيض.. ضحكت لهـــذا الخـــاطر الغبي والشاحنة في منتصف النفق..

وأوقفت الشاحنة بغتة، عطل طـــارئ جعلنـــي أتوقـــف بالشاحنة داخل النفق..

استمرت الشاحنة داخل النفق لأكثر من نصف الساعة.

جاءتني مكالمة من الطاغوتي:

- تأخرت في النفق ماذا يحدث عندك ؟!

أجبته بهدوء وأنا أقتل الشك بداخله: أأنا مراقب ؟!.عطل طارئ بسيط في الشاحنة لا تقلق .

قال في اقتضاب:

- لست مراقبًا ولكننا بانتظارك بعد الاتصال بي وهناك من سيحمي الشحنة من بعيد.

- الشحنة سالمة..تأكد أنها سالمة، قريبا سنلتقي.

أحسست بالقلق في صوته وهو يقول:-هل أبعث لك الرجال؟.

قلت في هدوء متماسك:

- كلاّ.. لقد انتهيت، سوف أصل خلال ساعتين لا أكثر.

- وأنا في انتظارك.

أغلقت الخط وبدت لي الساعتان كأنهما نهاية الرحلة.. رحلة الأحلام النارية.

******

غادرتْ الشاحنة النفق بعد عشر دقائق وكان على أن أسرع أكثر وأكثر حتى انتهي من تلك الرحلة.

الدقائق تمر ببطء رهيب والشاحنة مستمرة فى رحلتها وكأن لا نهاية لتلك الرحلة المجنونة وكلمات سلوى تدق فى أذنيّ: "صدقني لم نقصدك في البداية، بل علاء كان يريد أن يضمك لنا، وبعد معرفتي بك أدركت طبيعتك وكنت أعلم أنك لن توافق..وأنك حالم كبير؛ لذا كان لابد من خطة لاستدراجك.. خطة وضعها رأفت، خطة طويلة تابعها يوما بيوم، ولكنه كان واثقا أنه سيصل إليك، سيصل حتما ولكنني..."

تمتمت لنفسي:

- ليكن يا سلوى.ليكن...لتكن نهاية الرحلة.

لمحت السيارة التي كان يجب على أن أتبعها من الآن أحفظ أرقامها جيدا..

فهي أرقام التليفون الذي أحمله بين يدي الآن كم هو رهيب هذا الطاغوتي.

وأخيرا مرت الساعتان.تجاوزتها بدقائق قليلة.وظهر لي مكان التسليم.

مزرعة كبيرة للخيول.

هواية أخري للطاغوتي.

ظهرت لي المزرعة بأسوارها العالية كنقطـــة رهيبـــة، حصن صعب أن يقتحمه أحد.

تحسست مسدس الحارون بيدي، وأنـــا أرفـــع الهـــاتف وأضغط زر مكالمة، أتى لي صوت الطاغوتي هادئًا:

- نراك، سنكون فى استقبالك.

ابتسمت وأنا أقول:

- وأنا أيضا سأكون سعيدا برؤيتك.

وأغلقت الخط والشاحنة تقطع ممرًا يؤدى إلـــى داخـــل المزرعة، ممرًا ممهدًا وعلى جانبيه أشجار عملاقة تخفـــي البوابة عن العيون.

لدقائق قليلة قطعت الشاحنة الممر بســـرعتها، وأخيـــرًا بدت البوابة التي فتحت آليًا.

ولجت الشاحنة من البوابة التي كانت مفتوحة، كأنها تهم باحتضاني ويدي تتحسس مسدس الحارون.

وبرغم القلق العاصف داخلي كنت أدرك إنني لن أخرج من هنا إلا فى حالتين..أقاتل أنا أم مقتول !.

بدت لي المزرعة من الداخل رهيبة الاتساع كأن لا حدود لها، كان هناك العديد من الرجال. معظمهم فى وضع الاسترخاء تقريبا. ولكن أعينهم تقول الكثير.

ابتسمتُ لبعض من رأيتهم من قبل وأنا أسير بالشاحنة بسرعة بطيئة، والسيارة أمامي تقودني كي أتبعها.

كانت الخيول تجرى وتتسابق عبر مضمار رهيب لسباق، في حين يتابع الطاغوتى السباق بمنظار مكبر من شرفة عالية لفيلا تحتل منتصف المزرعة. نوع من المراهنات يتم هنا .

نقل الطاغوتي المنظار إلى الشاحنة، وراح يحدق فيَّ، رسمتُ ابتسامة واضحة، وأنا أشير له بعلامة النصر.

وبرغم أن هذا الجو بالداخل يبدو ظاهريًا هادئًا بلا منغصات، ولكنني كنتُ قلقًا.

وأخيرًا استقرت الشاحنة خلف السيارة التي توقف سائقها وأشار لي بالترجل.

نزلتُ من الشاحنة، وأنا أتطلع للشرفة العالية التي استقر بها الطاغوتي، الذي أشار ليّ بيديه وكأنه يحتضنني وهو يقول بصوت مرتفع:

- اصعد.

وأكمل كلامه مشيرًا لرجله وهو يقول:

- انقلوا الشاحنة وأفرغوها مــن حمولتهــا.. أريــد أن أجلس وحيدًا مع فؤاد بعض الوقت .

صعدت درجات السلم المؤدي إلى باب الفــيلا والــذي وجدته مفتوحًا وكأنه يستعد لاستقبالي.

نظرت للفيلا نفس تصميم فيلته في طريق المترو.. كــم رهيب هذا الرجل.

كان الطاغوتي يهبط الدرج، وعينــاه اللاصــقتان بــيّ تتفحصاني، وعلى شفتيه ابتسامة لزجة، ويده تحمل حقيبــة سوداء، وكان يرتدى أغرب شيء يمكننــي أن أتصــوره، "جلبابًا بلديًا"!

لاحظ نظراتي فزادت ابتسامته وهو يقول:

- هنا أحب أن أعيش على طبيعتي، مجرد فلاح يهوي تربية الخيول، صحيح ما رأيك فى المزرعة.

قلت فى اقتضاب:

- رهيبة.

قال وهو يضحك:

- هنا تجد أجود أنواع الخيول العربية، الطويسة، كحيلة العاديات، ربدة، الشويمة الكري الملولش الصقلاوية، أنواع لم ترها من قبل..أعتبرها هواية.

ابتسمت وأنا أقول:

- هواياتك كثيرة حتى أصبح من العسير على حفظها أو الإلمام بها.

قال وهو يناولني الحقيبة:

- باقي نقودك.. مليون دولار كاملة.. عدًا ونقدًا.

تناولت الحقيبة منه وأنا أهمس:-

وهل تظن أن هذا هو حقي فقط.

قال وهو يبتسم:

- جرمين، أليس كذلك؟!.

ابتسمتُ وأنا أقول:

- كلاّ لم تعد تنفعني فى الوقت الحاضر.

وبغتة دوت الرصاصات لتشق الصمت الظاهري.. وارتفع الدوى في المزرعة، في حين تسمرت عينا الطاغوتى عليّ، وجحظتا بشدة، وهو يقول ذاهلاً:

-أنتَ؟!.

ومع ارتفاع دوي الرصاص بصوت رهيب، بـــدا كـــأن الجحيم قد فتح في المزرعة.. وصهيل الأحصنة العربيـــة يصرخ في أذنيّ، بينما عيناي متعلقتان بالطاغوتي الواقف في جلبابه البلدي، والذي لم تزايله الدهشة بعد.

بينا تراقصتْ ابتسامة على شفتيّ،

ابتسامة ذئب.ذئب مفترس.

وفي مواجهة وجه الطاغوتي انتصبتْ ماسورة مســـدس الحارون، وسبابتي على الزناد في وضع التحفز.

طبيعة الطاغوتي كانت تنفر بداخلـــه أراد أن يتراجـــع بظهره، ولكن الدوي المستمر كان يلاحقه وبشدة ومسدسي في وجهه.. وصهيل الأحصنة يعلن صعوبة الأمر بالخارج.

******

قلت في صوت حازم:

- خطوة واحدة للوراء وستستقر رصاصتي في جبينـــك المشرق؛ لتزينه بثقب رائع.

ضغط على أسنانه وهو يقول:

- مستحيل! كيف هذا؟!

انطلق الشرر من عينيّ وأنا أقول:

– لقد تم تبديل الشحنة فى النفق، لست وحدك من يملك الخطط الناجحة.

بات الذهول فى عينيه وهو يقول:

– بدلت الشحنة !

قلت في هدوء، وعيناي لا تفارقان عينيه:

– بالطبع، وهل كنت تظن أنني سوف أشارك فى بيـــع البشر، أنت واهم.. وهل تظن أنني سوف أسمح لنفسي أن أجلب بشرًا؛ ليباعوا كقطع غيار بشرية..ولكـــن الشـــحنة دخلت أوربا كما اتفقنا، في النفق تـــم إنزالهـــا..والآن هـــم موجودون في مخيمات الصليب الأحمر.

قال في ذهول:

– الصليب الأحمر!.

قلتُ ووجهي ينطق بازدراء ليس له حـــدود:– بفضـــل خطتك الرهيبة وبتخديرهم وشحنهم فى شاحنتك الضخمة لم نجد أي مقاومة وتم إنزالهم بمنتهى الهدوء.

ظلت عيناه متعلقتين بي وكأنه يقيس حجم الخطأ الـــذي وقع فيه.

بينما صوت تبادل أطلاق النار يتصاعد في الخارج.

فُوجئ رجال الطاغوتي وهم يفتحون الباب الخلفي للشاحنة، مفاجأة لم تكن في الحسبان، كانوا يتوقعون أنهم سينزلون مجموعة من الأشخاص المخدرين تم نقلهم داخل أوربا بواسطة تلك الشاحنة، ولكنهم فوجئوا بقوات البوليس ومدافعهم ومسدساتهم مشهرة في الوجوه ..

كان وقع المفاجأة رهيبًا، حاولوا المقاومة.

ولكن قوات الأمن كانت تتعامل مع الموقف بمنتهى السرعة والمهارة والحزم.

سقط الكثيرون، وانتشرت قنابل الدخان والقنابل المسيلة للدموع في المكان، بينما حاول رجال الطاغوتي النجاة بعمرهم، والرصاصات تنهمر عليهم كالمطر.

لدقائق بدت لا نهائية استمر الدوي يصم أذني.. وفي النهاية كان الطاغوتي يجلس على أول درج السلم وقد وضع رأسه بين راحتيه، بينما أنا أقف فوق رأسه، رفع عينيه إليّ وهو يتمتم وقد تلاشى وقع المفاجأة عليه:- غبي، هل تعتقد أنك ستنجح، أنها ليست النهاية يا فتى لقد لعبت الورقة الخاسرة..

واتقدت عيناه وهو يتابع قائلا:- إنها تجارة رهيبة يقف خلفها آخرون أقوى مني، السلسـلة لا نهائيـة، تجارتنـا يحكمها المال والأحلام.

قلت في استفزاز:

- لم يعد يهمني مالك ولا الأحلام.

قال في غيظ وهو يرى المسدس في وجهه:- سـنتقابل مجددًا وقتها ستكون نهايتك.

قلتُ في لا مبالاة وسبابتي تعتصر الزناد ببطء:- مـن قال لك إنني سوف اسمح أن تقابلني مرة أخرى

قال ذاهلا:

ماذا تعني ؟!

قلتُ وابتسامة الذئب تتراقص وتقفـز مـن وجهـي:- رصاصة واحدة وأنهي كل شيء..رصاصة تسـتقر فـي رأسك.. وبالطبع أنت قاومتني والرصاصة خرجت خطأ.. كل شيء محسوب بدقة.

وانطلقت ضحكاتي الذئبية فجأة مع صـهيل الأحصـنة المتصاعد وحالة الارتباك في الخارج، وهو يتطلع ليّ غير مصدق.

بينما تحفز جسده، وعيناه تتابعان سبابتي التي تواصل ضغطها على الزناد ببطء، ولوهلة تراقصت أمامي كل الأحاسيس والمشاعر مع صهيل الأحصنة، الذي يكون مشهد من مسرحية عبثية، وانطلقت الرصاصة وسط الضجيج الرهيب، بينما جحظت عينا الطاغوتي برعب واتقدتا بشدة.

وهو يتحسس جبهته غير مصدق أنه نجا، في حين استقرت رصاصتي في اللوحة الرهيبة التي تمثله في منظر ارستقراطي مزيف. وزينت جبهته المرسومة.

قلت ببساطة:

- القادمة في جبهتك أنت الحقيقية وليست المرسومة.

قال في غيظ وحنق، وعيناه تطلقان الشرر:

- اللعنة ! سنتقابل يا...

لم يتم كلامه حينما اندفع قوات البوليس إلى مكاننا.

وبعد ثوان كانت الأغلال تزين معصمي الطاغوتي، بينما تسمرت أنا في مكاني وأنا أعيد مسدس الحارون إلى جرابه.

قال قائد الأمن:

- ستأتي معنا أنتَ أيضًا، فلا زال هناك خطرًا عليك.

قلت في هدوء:

- أسمح لي أن أجري مكالمة تليفونية أولاً.

فهزّ رأسه، ويدي تضغط زر مكالمة، مكالمة ربما كانت الأخيرة لقطع نهاية الرحلة.

*****

مرت ثلاث شهور أخرى على هنا منذ نهاية الرحلة التي لم أظن أنها ستنتهي قط.

رحلة الأحلام المزيفة والمشتعلة بداخلي.

كنت أشعر أنني مراقب كل لحظة بل كل ثانية.

برغم الحراسة التي فرضها على الأمـن إلا أن القلـق والترقب لم يفارقاني.

وظل تهديد الطاغوتي يضرب عقلي وجنبات صـدري كل ثانية.

كنت قد بدأت أعود للروتين اليومي، ولكن هناك قـرارًا نما بداخلي وراح يكبر كل يوم.

مكالمة بسيطة أجريتها يوم القبض علـى الطـاغوتي، اتصلت بعلاء، لأنهى علاقتي بهم قلت له ببساطة: احترسوا فأنتم مراقبـون الآن ولا مجـال لتنفيـذ أي عمليـة دون

رصدكم.. وقلت له أبلغ رأفت تحياتي، ولقد أبلغت سلوى أيضا .

وأغلقت الخط وتخلصت من الهاتف المحمول، بل وتخلصت من "الميل" العادي والسري بتبديل الرقم السري عشوائيًا حتى نسيته كي لا أعود مرة أخرى إليه.

كنت قد استيقظت هذا الصباح وقد عزمت أمري، بالتخلص نهائيًا من الأحلام النارية، والتخلص من حالة الإنسان الآلة.

قررت أن أعود إلى فؤاد الذي تاهت معالمه هنا في وطن ليس له.. وفى غربة ملعونة.

أخذتُ طريق المترو مرة أخرى، وسيرًا على الأقدام، كنتُ أحضن الحياة بصدر مفتوح وشوق حبيب.

يجب أن أحيا حتى لو كنت خطأ، سوف أحيا.

فيلا الطاغوتى مغلقة ولا وجود للحارسين الخاصين الآن، بل هناك العديد من رجال الشرطة حولها.

ابتسمت ابتسامة غريبة وأنا أتطلع إليها..كيف كان ما كان!.

أدخل محطة المترو نشطا، جسدي يتحرك، عقلي يتحرر، وجداني ينطلق.. شيء بداخلي يظهر من جديد.

اقترب من فرنشيسكا التي كانت ما تزال تحتل مكانهـــا خلف حاجز التذاكر ابتسم لها ابتسامة كبيرة، وأنا أهمـــس لها:

- صباح جميل فرنشيسكا.

هبت من مكانها واتسعت عيناها في طفولة:- فؤاد، أين كنت، صباحك جميل فؤاد، صباحك كله جميل.

صحيح أين كنت؟!

قلت هامسا:

- كنت في رحلة طويلة. رحلة !

قالت في همس وهي تغمز بعينيها:

- استمتعت بها فؤاد.

اقترب من النافذة الزجاجية، وانفخ على زجاجها بخـــار الماء المتصاعد من بين شفتي؛ فتكون سحابة شبورة مـــن البخار، ارسم بأصابعي قلب يخترقه عدة أسهم، وأنا أهمس لها: تتزوجيني فرنشيسكا.

تضحك ضحكتها الطفولية الجميلة، وتحمـــر وجنتاهـــا، وهي تقول من وسط ضحكاتها:

- لست فارس أحلامي فؤاد.

ابتسم وابتعد عنها، وأنا آخذ تذكرتي، أضع قبلة على كف يدي وأرسلها لها فى الهواء وهى تواصل ضحكها، بينما المترو يقبل.

رحلة ربما كانت الأخيرة!

لست أدرى؟!

أخذتُ طريقي إلى عربتي المفضلة أتطلع للوجوه كم افتقدهم، افتقدت تلك الرحلة منذ شهور.

راحت عيناي تجوبان في الوجوه، أبحث عن الألفة الغريبة بين العيون، قصص من العلاقات تنمو هنا.

ولكن أكاد أجزم أن العربة جوها حزين، هكذا تخيلت!.

ولكنك تشعر أحيانا بالانقباض دون سبب.

كان الفتى الذي يحلم أن يكون طبيبًا يجلس، وعيناه تنظران من زجاج المترو للخارج، كأنه يطالع حياة أخرى تتسرب من بين يديه.

بينما المرأة التونسية منكسة الرأس وتنظر أسفل قدميها، وقد أردت ملابس غامقة سوداء.

أردت التساؤل. ولكن تلك النظرة الخاطفة التي طالعتني بها كانت تقول شيئًا خطيرًا.

اقتربت من الفتى فى توجس، جلست قبالته قلت فى همس:- ماذا أصابها.

نظر الشاب ليّ كأنه يستطلع ملامحي ويقول:

- هل عدت؟! أو هكذا تخيلت!

ثم هزّ رأسه فى حزن وهو يقول:

- فقدت ابنتها في حادثة بين المحطات منذ شهر تقريبا.

ارتجفت عيناي وأنا أتذكر صورة الصغيرة المجبرة على رحلتها اليومية مع أمها وسط جو فظيع.

كانت تريد اللحاق بعملها كالعادة..تأخرت صديقتها يومها، قلقت وعندما لمحتها أسرعت لتناولها الصغيرة، تعثرت وهى تنزل من المترو فسقطت الطفلة تحت العجلات، وسقطت هي على وجهها بينما ظلت صديقتها تنظر وتصرخ.

يا الله!

كم هي الحياة!

أطرقت برأسي فى أسى بينما قال الفتي مردفًا:

- لا تحاول أن تكلمها فهي لا تتحدث تقريبا.. وإذا تذكرت صرخت دون سبب.

لزمت الصمت وجفت الكلمات فى حلقي.

كنت أود أن أسأل عن العجوز ورحله غسيله الكلـــوي، ولكنني لم أستطع حتى لا أصطدم بخبرة وفاته هو الآخر.

الغربة تقتل يا حارون!. تقتل !

الشاب صاحب الرواية لم أره، هو الآخر مختف.

لن أسأل سوف أغادر المترو وأنا أحاول أن أنفي بينـــي وبين نفسي أن هناك علاقات ظهرت أو كانت لي هنا.

الإفريقي يبتسم لي، ولكنها ابتسامة حزينة أخري تشعر أنها تخترقك؛ لتصيبك بالحزن اللانهائي.

غادر البعض بين المحطات، وجـــوه جديـــدة ظهـــرتْ، ووجوه أخرى هربتْ من أمامي، سوف اقتل بداخلي حالـــة التأمل، سوف أقتلها.

غادرتُ المترو..

ظهر المصنع جليًّا بعد

دقائق، سأمر على جرستيني في العودة، ساعة واحـــدة بالداخل.. أنهيت كل ارتباطاتي بالمصنع، وأخـــذت بـــاقي مستحقاتي لديهم.. مخصوم منها الضرائب.. هنا الضرائب مقدسة ولا عبث فيها..

كنت أريد الهروب، الهروب بما بقى لي من نفسي!

ولكن هذه المرة سيكون هروبي مختلفاً، هروبا إلى الوطن.

هروبا إلي مصر!

حتى لو قتلتني ألف يوم، فيكفي أنها الوطن، وطني.

الوطن لا يشترى يا حارون، بل يزرع داخلنا دون إرادة، دون سبب.

سلمت على الجميع، لم يصدقوا أنني سوف أغادر المصنع للأبد.

راحل إلى الشرق سوف أمضي.. هارب إلى مصر سوف أمضي.

كان كل شيء يجعلني أفكر ألف مرة أن أعود.. تتبعت في عودتي أخبار الشاب صاحب الرواية

قال لي أحدهم:

– لقد جن عندما تمزق منه رباط روايته في أحدى المحطات

وطارت على أرصفة وحديد سكك المترو.

هو الآن يقف بين المحطات يسأل أي شخص راكب أو نازل هل عثر على ورقة من روايته..إذا دققت قليلا قد تراه في أحدى المحطات، ولكنه يبدو كالشبح يظهر لدقائق سائلاً ثم يعود للاختفاء ..

أطمئنتُ قليلا عندما عرفت أن العجوز ما زال حيًا ويحلم بزراعة كلى.

وظلت عيناي طويلاً تبحث بين المحطات عن الشاب صاحب الرواية. لا أعرف لماذا؟! ولكن بداخلي كنت أريد أن أصرخ فيه دع بطلتك تعيش.. دعها تعيش. ولا تقتلها على أرصفة الحزن .

******

كان يجب أن أشرب آخر فنجان قهوة لدي جرستيني، دفعت باب المطعم ودخلت لمحته يقف في مكانه.

ما إن رآني حتى أشرق وجهه وهو يقول:

- عاد الذئب وحيدًا.

قلت وأنا أحتضنه:

- بل سيغادر الذئب وحيدًا.

ارتفع حاجباه في دهشة وهمس:

- ستغادر ؟!

هززت رأسي وأنا أهمس بالمثل:

- لم يعد لنا عيش في هذه البلد.

قال في خفوت:

- سأعد لك قهوة الصباح.

قلت ضاحكًا:

- جرستيني أين ليلى؟!

قال وهو يضحك:

- ليلي لا تغادر المنزل الآن، تحلم أن تنجب طفلاً جميلاً ليّ.

ابتسمت وأومأت برأسي وأنا أقول:

- حافظ عليها جرستيني بحياتك.. ليلى كنز.

أومأ جرستيني برأسه وقال:

- هل ستعود أنتَ؟!

قلت بصوت واضح الرنين:

- كلاً.. لن أعود جرستيني.

ظهر الحزن على وجهه وطفرت الدموع بعينيه وهو يهمس:

- سنراك، سنراك أكيد.

قلت:

- لا أظن..لا أظن.

قال في وجل:

- بل سنراك، سوف نسافر مصر قريبا، أريد رؤية الأزهر، أريد رؤية مصر، الأهرامات..فرعون مثلك، أريد أن أراه.

وجدت الابتسامة طريقها إلى شفتيّ وأنا أقول:

- حفيد هتلر يريد أن يغزو مصر بعد أن فشل أجداده.

ضحك واحمر وجهه وهو يقول:

- سنراك فؤاد.

- سلم لي على ليلى وأبلغها تحياتي.

- سنراك فؤاد.

كنت قد انتهيت من شرب القهوة، فقلت مودعا:

- سلام يا إبراهيم، سلام يا جرستيني.